الفصل الخامس
الشعراء الْمُوَلَّدُون

كان الشاعر في الجاهلية لسان دفاع، وخامي ذمار، ومسجل محامد؛ وفي الدولة الأموية كان داعية دين، ودعامة ملك، وناشر مذهب، ومؤيد فرقة؛ وفي الدولة العباسية كان نديم خليفة، وسمير أمير، وأليف كأس، وصريع غانية وكان أكثر شعراء بغداد في صدر هذا العصر من الموالي لذين أطاعوا العرب كرها، واعتقدوا الإسلام رياء، فهاجموا الأخلاق بالخلاعة والمجون، وأذاعوا في الناس الزندقة والشك، ولكنهم أذاعوا كذلك الآراء الحرة، والمعاني المبتكرة، والأخيلة البديعة، والأوصاف الدقيقة، والمذاهب الجديدة، والعبقريات المأثورة، كمطيع بن إياس، وحماد عجرد. وحسين بن الضحاك، وبشار ابن برد، ووالبة بن الحباب، وأبي نواس، ومسلم بن الوليد، وأبان عبد الحميد، وأبي العتاهية، وأبي دلامة، ومروان ابن أبي حفصة، وعباس بن الأحنف، وعلي ابن الجهم، ودعبل الخزاعي، والعَسكَوك.

شعراء بغداد

بشار بن بُرْد

(المتوفى سنة 167 هـ)

نشأته وحياته

هو بشار بن برد بن يرجوخ العقبلي بالولاء كنيته أبو معاذ ولقبه المرَعَّث لأنه كان في أذنيه رُعثة، " والرعثة القرمط ". أصل أبيه من فرس طخارستان من سبى الملهب ابن ابي صقرة، وهبة لامرأة من بني عقيل فتزوجته ونسب إليها. ولد بشار بالبصرة ونشأ في بني عقيل مولعا بالاختلاف إلى الأعراب المخيمين بادية البصرة، حتى شب فصيح اللسان صحيح البيان من اللكنة والخطأ، ولذا كان آخر من يحتج النحاة بشعرهم. فلما بلغ مبلغ الرجال انتجع الخلفاء والأمراء بالمدح، وكاد يعيش في ظلال الشعر وادع النفس رغد العيش لولا تعديه بالهجاء، وتعرضه للنساء، وهتكه ستر الحشمة، حتى نقم الناس ذلك منه، وتمنوا موته صوناً للعذارى وغيره على المخدرات. قال مالك ابن دينار. " ما شيء أدعي لأهل هذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى الملحد "، ودخل فريق من الغير على المهدي فأسمعوه قصيدة من غزله، فقال: " بمثل هذا الشعر تميل القلوب ويلين الصعب " وأمر به، فلما جاء قال له: " والله لئن قلت بعد هذا بيتاً واحداً في تشبيب لآتين على روحك "، فكان بشار بعد ذلك إذ أراد الغزل ذكر أن الخليفة منعه من كيت وكيت ويذكر ما يريد من اللهو وحديث النساء.

ولما توقح بشار وتهتك، ولم يردعه تهديد المهدي له، ولا زراية الناس عليه، سعى به ثانية إلى الخليفة ورمى عنده بكل نقيصة. وصادف ذلك أن بشاراً مدح المهدي فلم يجزه لميله عنه وتغيره عليه، فهجاه بأبيات منها:

بني أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب ابن داود

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعود

وبلغ الخليفة ذلك، فدعا صاحب شرطته وأمره أن يضربه بالسوط، فضربه حتى مات سنة 167، وقد أوفى على السبعين.

صفته وأخلاقه

ولد بشار أكمة فما رأى الدنيا قط. على أنه كان يشبه الأشياء بعضها ببعض في شعره فيأتي بما لا يقدر عليه البصراء، كقوله:

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبه

وكان ضخم الجثة، مفرط الطول، مجدور الوجه، جحظ الحدقتين، قد تفشاهما لحم أحمر؛ فكان أقبح الناس عمى وأفظعهم منظراً. قالت له امرأة ذات يوم: لا أدري لم يهابك الناس مع قبح صورتك؟ فأجابها. ليس من حسنه يهذب الأسد. ودخل عليه أحد الأدباء يوماً وهو نائم في دهليزه كأنه جاموس، فقال له. يا أبا معاذ، من القائل:

إن في بُردي جسما ناحلا لو توكأت عليه لانهدم

قال: أنا. قال: من القائل أيضاً:

في حلتي جسن فتى ناحل لو هبت الريح به طالحا

قال: أنا قال: فما حملك على هذا الكذب؟ والله إني لأرى أن لو بعث الله الرياح التي أهلك بها الأمم الخالية ما حركتك من موضعك!.

وكان بشار متوقد الذكاء، حاضر الجواب، صادق الحس، بذيء اللسان، كثير المجون، مغمور الدين، يؤمن بالرجعية ويصوب رأي إبليس في تقديم النار على الطين وإبائه السجود لآدم في مثل قوله:

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

وكان إذا أراد الإنشاء صفق بيديه وتنحنح وبصق يميناً وشمالا ثم ينشد!

شعره

قال بار الشعر وهو ابن عشر سنين، فما بلغ الحلم إلا وهو طائر الصيت فيه. وقد أدرك جريراً وهجاه وقال: هجوت جريراً فاستصغرني وأعرض عني،

ولو رد علي لكنت أشعر الناس. وأول ما تكلم فيه من أنواع الشعر الهجاء لأن سوقه كانت نافقة أيام ولد. وطرق كل باب من أبواب الشعر التي فتحت قبله ثم زاد عليها. ورواه الشعر ونقدته متفقون على أنه زعيم طبقة المولدين[1]، وأسبقهم إلى المجون البذيء والغزل الرقيق، وأول من جمع شعره بين جزالة البدو ورقة الحضر، وأن شعره هو الحد الأوسط بين الشعر القديم والحديث. فهو في المولدين كامرئ القيس في الجاهليين، والبارودي في المحدثين، وكان الأصمعي يشبهه بالأعشى والنابغة لسلامة شعره من الخلل وخلوه من الحوشي والتعقيد. وقد شهد له الجاحظ بالتبريز في سائر مناحي القول وفنون الكلام فقال: " كان بشار خطيباً صاحب منظوم ومنثور ومزدوج وسجع ورسائل. وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع المتفننين في الشعر، القائلين في أكثر جناسه وضروبه ".

ولسلامة شعر بشار وطلاوته أولع به شبان البصرة وخلعاؤها، وافتتن به نساؤها؛ فكن يذهبن إليه، وينعمن بحديثه، ويتغنين بشعره. فهوى جارية منهن تسمى عبدة، شهرها بشعره حتى صار له معها أخبار طائرة وأشعار سائرة.

عيوب شعره

لا يتسنى لباحث أن يعرف ما ينتقد به عليه؛ لأن شعره لم يدون فذهب به الزمان، ولم يبق من اثنى عشر ألف قصيدة إلا قطع مختارة منتشرة في الكتب[2] وطل ما يعلم من عيوبه خروجه في شعره عن الحد المألوف من المجون، وتكميله القافية إذا أعوزته بألفاظ لا حقيقة لها، وتبذله في شعره أحيانا فيميل عن الشعر الجزل إلى الركيك السهل كقوله في جاريته:

ربابة ربة البيت تصب الخل في الزيت

---

(1) المولدون أو المحدثون هم الشعراء الذين فسدت فيهم ملكة اللسان فعالجوها بالصناعة كشعراء العصر العباسي. وميزتهم في شعرهم توليد المعاني، ودقة الأغراض، ورقة الألفاظ وجمال الصنعة، إلا أنهم أقل من سابقيتهم أسرا وفحولة، وأكثر تصنعا وكلفة.

(2) اختار له (الخالديان) طائفة حسنة من شعره ثم شرحاها تحت عنوان (المختار من شعر بشار) وقد طبع بالقاهرة سنة 1935 م.

لهـــا عشـــر دجاجـــات وديـــك حســـن الصـــوت

وقوله:

إن ســلمى خلقــت مــن قصــب قصــب الســكر لا عظــم الجمــل

وإذا أدنيـــت منهـــا بصـــلا غلـب المسـك علـى ريـح البصـل

ولكنـه كـان يعتـذر عـن مثـل الأول بـأن لـه حـالا تقتضـيه، وعـن مثـل الثـاني بأنـه قاله في صباه.

نموذج من شعره

من قوله في الغزل:

يزهــدني فــي حــب عبــدة معشــر قلــوبهم فيهــا مخالفــة قلبــي

فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتضى فبالقلب لا بالعين يبدر ذو الحب

وقوله:

يـا قـوم أذنـي لـبعض الحـي عاشـقة والأذن تعشـق قبـل العـين أحيانـا

قالوا بمن لا ترى تهذي؟ فقلت لهم الأذن كالعين توفي القلب ما كانا

وقوله:

لــم يطــل ليلــى ولكــن لــم أن ونفــى عنــي الكــرى طيــف ألــم

نفســي يــا عبــد عنــي وأعلمــي أننــي يــا عبــد مــن لحــم ودم

إن فــي بــردي جســما نــاحلا لــو توكــأت عليــه لانهــدم

ومن أبياته السائرة قوله:

هــل تعلمــين وراء الحــب منزلــة تــدني إليــك، فــإن الحــب أقصــاني

وقوله:

أنــا والله أشــتهي ســحر عينيــك وأخشـــى مصـــارع العشـــاق

وقال وهو يدل على اعتقاده بالجبر:

طبعت على ما في غير مخير هواي، ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطي، وأعطي ولم أرد وقصر علمي على أن أنال المغيبا

ومن قوله في الوصف والحماسة:

إذا الملك الجبار صعر خده مشينا إليه بالسيوف نعاتبه
وأرعن يغشى الشمس لون جديده وتحبس أبصار الكماة كتائبه
تغص به الأرض الفضاء إذا غدا تزاحم أركان الجبال مناكبه
ركبنا له جهرا بكل مثقف وأبيض تستقى الدماء مضاربه
كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوي كواكبه

أبو العتاهية

(130 – 211 هـ)

نشأته وحياته

هو إسماعيل بن القاسم بن سويد وكنيته أبو إسحاق ولقبه أبو العتاهية. ولد بعين التمر قرية بالحجاز ونشأ في الكوفة على صناعة أهله، وكانوا باعة جرار فجعل يصطنعها ويحملها في قفص على ظهره متنقلا في شوارع الكوفة يبيعها. إلا أنه مع ذلك كان ولوعاً بالقريض، نزوعاً إلى الأدب، يقول الشعر على سجيته من غير أن يجهد نفسه فيه. وربما حدث ببعض الحديث فيأتي موزوناً مقفي فيظنه الناس نثراً وهو شعر. ومنشأ ذلك تمكن الشاعرية منه ورسوخها فيه حتى إنه كان يقول عن نفسه " لو شئت أن أجعل كلامي كله شعراً لفعلت ".

ومما يؤيد أن الشعر كان فيه سليقة لا صناعة، أنه كان يجهل العروض جهلا تاماً؛ وله أوزان لا تدخل فيه، ولا تجري في مجاريه. ولما سمع به متأدبو الكوفة وفتيانها كانوا يذهبون إليه في مصنعه ويستنشدونه فينشدهم أشعاره، فيأخذون ما تكسر من الخزف فيكتبونها فيه. وهكذا بدأ أبو العتاهية يصنع الشعر في أتونه خزفاً ن ثم ما لبث أن صنعه درا تقلدته الأمراء والكبراء، وجرى ذكره مجرى المثل، فانتقل الخزاف من بين الطين والماء، إلى مجالس الشعراء ودواوين الخلفاء.

وفد إلى بغداد حاضرة العلم والأدب في أول خلافة المهدي ومدحه فحظى لديه واختلط ببعض جواريه فعشق منهن جارية تسمى عتبة، أكثر فيها الغزل حتى هم المهدي أن يهبها إياه لولا ضراعتها وكراهتها له. فألهاه عن ذكرها بالمال الكثير، فكان يأخذ المال ولا يفتر عن ذكرها في شعره حتى في مدائحه له [1] وكل ذلك كما قل تصنع وتخلق ليذكر بذلك. فلما توفى المهدي واستخلف الهادي، تغيرت أخلاق الشاعر فلها عن ذكر عتبة، وأخذ في التزهد

---

(1) زهر الآداب س 200.

والتخشن، وأقبل على دري مذاهب المتكلمين وبعض الفرق، فكان يأخذ بكل وقتا ثم ينصرف عنه إذا سمع طاعناً عليه. ولم يأت عصر الرشيد حتى أضرب عن الغزل وقصر قوله على التزهيد في الدنيا والتذكير بالموت. ثم عرضت له حال امتنع فيها عن قول الشعر البتة. فأرغمه الرشيد عليه فأبى، فضربه ستين عصا وسجنه ولم يطلقه حتى رجع إلى قول الشعر. وكان بع ذلك لا يفارقه في حضر ولا سفر، وأجرى عليه وظيفة مقدارها خمسون ألف درهم غير الجوائز منه ومن امرأته. واتصلت شهرته بالآفاق وتغنى بشعره المغنون وتناجى به الزهاد وسائر الناس على اختلاف طبقاتهم، وعنى العلماء والرواة بجمع شعره، ولم تزل تلك حاله مدة الرشيد والأمين وأكثر أيام المأمون حتى مات سنة 211هـ.

صفته وأخلاقه

كان أبو العتاهية أبيض اللون أسود الشعر له وفرة جعدة وهيئة حسنة. وكان لبق اللسان مذبذب الرأي مفككاً معتل العقيدة لاضطرابه في الآراء وتلونه في النحل، مقترا على نفسه وأهله مع ورفة ماله وحسن حاله. وكان بعض الناس ينسبه إلى إنكار البعث محتجاً بأن شعره إنما هو في ذكر الموت والنقاد دون ذكر النشور والمعاد. وعلى الجملة فالدارس لحياة الرجل يراه مضطرب المزاج غريب الأخلاق مذبذبا في نسبه وحبه وعلمه وعقيدته.

شعره

كان هذا الشاعر غزير البحر، لكيف المعاني، سهل الألفاظ، كثير الافتتان قليل التكلف، إلا أن شعره كثير الساقط المرذول. وأجوده ما قاله في الزهد والأمثال. ولقد قال الأصمعي: " إن شعر أبي العتاهية كساحة الملوك، يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والنوى " وذلك حق؛ لأنه كان يرسل الشعر إرسالا على البديهة من غير تعمل ولا تنقيح. على أنه في الطبقة الأولى من المولدين كبشار وأبي نواس، وهذا كان يفضله على نفسه. ويمتز أبو العتاهية بقلة تكلفة وسهولة ألفاظه حتى كادت تخرج إلى حد الابتذال. وحجته في ذلك أنه يرمي إلى العظة والزهد فينبغي أن يكون شعره مفهوما لدى الناس على السواء. وهو

الذي نهج للشعراء مناهج الزهد والعظات فاقتفوا أثره فيها. ولقد طرق أبواب الشعر فأجاد، إلا أن تفوقه ونبوغه إنما هو الحكم وضرب الأمثال. وله أرجوزة جمعت أكثر من أربعة آلاف مثل: أما غزله فخيره ما قاله في عتبة. وأحسن مدائحه ما قاله في المهدي والرشيد. ولقد صان لسانه عن الهجاء إلا ما كان بينه وبين عبد الله ابن معن، فإنه قال فيه من غير فحش ولا هجر:

فصغ ما كنت حليت ... به سيفك خلخالا
وما تصنع بالسيف ... إذا لم تك قتالا؟
ولو مد إلى أذنيه ... كفيه لما نالا
أرى قومك أبطالاً ... وقد أصبحت بطالا

درر من قلائده

ومن قوله في الغزل:

عيني على عتبة مُنْهَلّةٌ ... بدمعها المنسكب السائل
كأنها من حسنها درة ... أخرجها اليم إلى الساحل
كأن في فيها وفي طرفها ... سواحراً أقبلن من بابل
بسطت كفي نحوكم سائلاً ... ماذا تردون على السائل؟
إن لم تنيلوه فقولوا له ... قولا جميلاً بدل النائل
لم يبق مني حبها ما خلا ... حشاشة في بدن ناحل
يا من رأى قبلي قتيلا بكى ... من شدة الوجد على القاتل!

وقال للمهدي وقد توفيت ابنته:

ما للجديدين لا يبلى اختلافهما ... وكل غصن جديد فيهما بالي؟
يا من سلا عن حبيب بعد ميتته ... كم بعد موتك أيضاً عنك من سالي!
كأن كل نعيم أنت ذائقه ... من لذة العيش يحكى لمعة الآل

لا تلعبن بك الدنيا وأنت ترى ما شئت من عبر فيها وأمثال
ما حيلة الموت إلا كل صالحة أو لا، فما حيلة فيه لمحتال

ومن قوله للرشيد وقد سجنه لإضرابه عن الغزل:

تذكر أمين الله حقي وحرمتي وما كنت توليني لعلك تذكر
ليالي تدني منك بالقرب مجلسي ووجهك من ماء البشاشة يقطر
فمن لي بالعين التي كنت مرة إلى بها في سالف الدهر تنظر

ومن قوله يعظ الرشيد:

لا تأمن الموت في طرف ولا نفس ولو تسترت بالأبواب والحرس
واعلم بأن سهام الموت قاصدة لكل مدرع منا ومترس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس

وقال:

لدوا للموت وابنوا للحرب فكلكم يصير إلى ذهاب
ألا يا موت لم أر منك بدا أتيت وما تحيف وما تحابي
كأنك قد هجمت على مشيبي كما هجم المشيب على الشباب

أبو نواس

(145 - 199 هـ)

نشأته وحياته

هو الحسن بن هانئ بن عبد الأول الحكمي. يكنى بأبي نواس لأن خلفا الأحمر كان له ولاء باليمن، وكان من أميل الناس إلى أبي نواس فقال له: أنت من أشراف اليمن فتكن بأسماء الذوين (وهم الملوك الذين تبتدئ أسماؤهم بذو) ثم أحصى أسماءهم فقال: ذو جدن وذو يزن وذو نواس. فاختار ذا نواس فكناه بها، فغلبت على كنيته الأولى وهي أبو علي. ولد بقرية من قرى الأهواز ونقل إلى البصرة ونشأ بها. ثم انتقل إلى بغداد وتوفى فيها. كان أبوه من جند مروان ابن محمد آخر بني أمية. ولما توفى لم يجد أبو نواس من يعوله، فالتجأ إلى عطار يشتغل عنده. ولكنه كان مولعاً بالعلم مشغوفاً بالأشعار والأخبار، فكان كثيراً ما يغشى أندية العلماء، ويحضر حوار الشعراء، ويترنم بالنظم. وقد سمع بذكر والبة ابن الحباب وشهرته في الشعر فكان يود لو يتصل به ليأخذ عنه. فاتفق أن مر والبة هذا بالعطار الذي كان يعمل عنده أبو نواس فتوسم فيه الذكاء والفطنة وتوقد الذهن. فقال له إني أرى فيك مخايل أرى ألا تضيعها، وستقول الشعر فاصحبني أخرجك، فقال له ومن أنت؟ قال: أنا والية ابن الحباب. فقال له. نعم أنا والله في طلبك، ولقد أردت الخروج إلى الكوفة لآخذ عنك. فسار أبو نواس معه، وقدم بغداد وقد أربى على الثلاثين، وهناك صحب الشعراء ودرس على العلماء حتى أصبح من أشعر أهل عصره وأغزرهم علماً وأنبههم اسماً. وتأدى خبره إلى الرشيد فإذن له في مدحه فمدحه واتصل به ونفق [1] عنده. وبلغ من دالة أبي نواس عليه أنه كان يمر به بنو هاشم والقواد والكتاب فيحيونه وهو متكئ ممدود الرجل فلا يتحرك لأحد منهم. وكان يقصد عمال الولايات فيمدحهم ومن هؤلاء الخصيب عامل مصر،

---

(1) قالوا إنما حصل على مكانته عند الرشيد لأنه كان يبكر إليه فيسأل خواص القصر عما جرى له مع الجواري، ثم ينشده أشعاراً تطابق ذلك.

فقد مدحه بقصائد رواها عن المصريون دون العراقيين. ثم انقطع بعد ذلك إلى محمد الأمين فنادمه ومدحه، وثبت عنده ما يوجب سجنه فسجنه مدة، ولم يلبث بعد إطلاقه أن مات سنة 169 ببغداد.

صفاته وأخلاقه

كان أبو نواس جميل الصورة، خفيف الروح، حلو الحديث، حاضر البديهة فصيح اللسان، مدمنا للخمر، كثير الهزل والمجون، جامعا لأشتات الصفات التي يجب أن تكون في النديم، مستخفا بأمور الدين. وله مع الشعراء مناقضات كثيرة. ونوادره المجونية مجموعة في كتاب خاص غير ديوانه طبع جزؤه الأول في القاهرة؛ إلا أن أكثر هذه النوادر وتلك الأشعار المجونية مدسوس عليه، لأن جل أشعاره في ذكر اللهو ووصف الخمر وما يتبع ذلك، وليس هذا مذهب المعاصرين له ولا المتأخرين عنه، فالحق الناس بشعره كل ما وجدوه من جنسه ولم يعرفوا قائله. وأكثر أخباره مع جارية شاعرة تسمى جنان قد هويها وكلف بها.

منزلته في الشعر

كان أبو نواس ضليعاً في اللغة راوياً للشعر والأخبار، حتى قيل إنه لم يقل الشعر إلا بعد أن حفظ شعر ستين امرأة خلاف الرجال. وقد قال فيه الجاحظ ما رأيت أحداً كان أعلم باللغة من أبي نواس ولا أفصح لهجة منه مع حلاوة ومجانية استكراه. ولج أبواب الشعر كلها، لا أنه امتاز من كل الشعراء بفحش مجونه، وصراحة قوله، وصدقه في تصوير خليقته وبيئته، ووصفه الخمر وصفاً " لو سمعه الحسنان [1] لهاجر إليها وعكفا عليها " وأقل شعره مدائحه، وأكثرها في الرشيد وولده الأمين. ويعد أبو نواس ثاني بشار في منزعه لفظاً ومعنى، وكثيراً ما ضرب على وتره، حتى قال الجاحظ: " بشار وأبو نواس معناهما واحد والعدة اثنان: بشار حل من الطبع بحيث لم يتكلف قولا ولا تعب في عمل شعر، وأبو نواس حل من الطبع بحيث يصل شعره إلى القلب بغير إذن ".

---

(1) الحسن البصري وابن سيرين.

وكان أبو نواس مشهوراً بالتنقيح، يعمل القصيدة بتركها ليلة ثم ينظر فيها فيحذف أكثرها ويقتصر على الجيد منها، ولهذا قصر أكثر قصائده. وهو على رقته ومجونه جزل الألفاظ، فخم الأسلوب، كثير الغريب ولقد ابتدع في الشعر أشياء أنكرها عليه العقلاء، وأخذها عنه الشعراء، كاستهتاره في الفجور، واسترساله في المجون، ونقله الغزل من أوصاف المؤنث إلى أوصاف المذكر. ولا ريب أن هذه الطريقة التي شرعها هذا الشاعر الماجن كانت جناية على الأدب، ووصمة في تاريخ شعر العرب.

درر من قلائده

قال في الخمر:

ما زلت أستل روح الدن في لطف وأستقي دمه من جوف مجروح

حتى انثنيت وفي روحان في جسدي والدن منطرح جسما بلا روح

وقال أيضًا:

مُعَتّقَة صاغ المزاج لرأسها أكاليل در ما لمنظومها سلك

جرت حركات الدهر فوق سكونها فذابت كذوب التبر أخلصه السبك

وقد خفيت من لطفها فكأنها بقايا يقين كاد يذهبها الشك

وقال في وصف شاربها:

ومستطيل على الصبهاء باكرَها في فتية باصطباح الراح حُذّاق

فكل شيء رآه ظنه قدحاً وكل شخص رآه ظنه الساقي

وقال في وصف الكأس:

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا بها أثر منهم جديد ودارس

مساحب من جر الزقاق على الثرى وأضغاث ريحان جنى ويابس

حبست بها صحني فجددت عهدهم وإني على أمثال تلك لحابس

تدار علينا الراح في عسجدية حبتها بألوان التصاوير فارس

قرارتهـــا كســـرى، وفـــي جنباتهـــا مَهـــاً تـــدَّرِيها بالقســـي الفـــوارس
فللخمـــر مـــا زرت عليـــه جيوبهـــا وللمـــاء مـــا دارت عليـــه القلانـــس

وقال في عاقبة الجهالة:

ولقـد نهـزت مـع الغـواة بـدلوهم وأسـمت سـرح اللهـو حيـث أسـاموا
وبلغـت مـا بلـغ امـرؤ بشـبابه فـــإذا عصـــارة كـــل ذاك أثـــام

وقال في مدح الخطيب أمير مصر:

تقول التي من بيتها خف محملي عزيـــز علينـــا أن نـــراك تســـير
أمـــا دون مصـــر للغنـــي متطلـــب بلـــى إن أســـباب الغنـــى لكثيـــر
فقلـــت لهـــا واســـتعجلتها بـــوادر جـــرت فجـــرى فـــي إثـــرهن عبيـــر
دعينـــي أكثـــر حاســـديك برحلـــة إلـــى بلـــد فيـــه الخصـــيب أميـــر
فتـى يشـتري حسـن الثنـاء بمالـه ويعلـــم أن الـــدائرات تـــدور
فمـا جـازه جـود ولا حـل دونـه ولكـن يسـير الجـود حيـث يسـير

وقال في وصف الدنيا:

ألا كـل حـي هالـك وابـن هالـك وذو نسـب فـي الهـالكين عريـق
إذا امـتحن الـدنيا لبيـب تكشـفت لـه عـن عـدو فـي ثيـاب صـديق

ومن أبياته التي يتمثل بها قوله:

لا أزود الطيـــر عـــن شـــجر قـــد بلـــوت المـــر مـــن ثمـــره

وقوله:

لـــيس علـــى الله بمســـتنكر أن يجمـــع العـــالم فـــي واحـــد

وقوله:

صـــار جـــدا مـــا مزحـــت بـــه رب جـــد ســـاقه اللعـــب

ابن الرومي

(221 - 284 هـ)

نشأته وحياته[1]

أبو الحسن علي بن العباس بن جرجيس مولى عبيد الله بن علي، رومي الأصل ولد ببغداد وفيها نشأ وتأدب حتى شعر ونبغ. ثم قضى حياته كأكثر الشعراء في انتجاع السراة والولاة. وقد حمل الناس بلسانه على بره وتكرمته، إما رغبة وإما رهبة.

كان ابن الرومي شرهاً كما يظهر من غضون شعره. وله أشعار كثيرة في الطعام والشراب. وكان شديد الطيرة يغلو فيها ويحتج لها ويقول: إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل ويكره الطيرة، وأنه مر برجل وهو يرحل ناقة له ويقول: (يا ملعونة)، فقال لا يصحبنا ملعون. وأن علياً رضي الله عنه كان لا يغزو غزاة والقمر في العقرب. وكان يزعم أن الطيرة موجودة في الطباع، وهي في بعضهم أظهر، وأن الأكثر في الناس إذا لقى ما يكرهه قال: على وجه من أصبحت اليوم؟ قال على ابن المسيب: " دخل علينا ابن الرومي يوم مهرجان سنة 278 وقد أهدى إلي عدة من الجواري القيان؛ وكانت فيهن صبية حولاء وعجوز في إحدى عينيها نكتة. فتطير من ذلك ولم يظهر لي أمره، وأقام باقي يومه لا يخرج. فلما كان بعد مدة يسيرة سقطت ابنة لي من بعض السطوح، وجفاه القاسم ابن عبيد الله فجعل القينتين سبب ذلك وكتب إلي يقول:

أيها المتحفي بحول وعور ... أين كانت عنك الوجوه الحسان؟

قد لعمري ركبت أمراً مهيناً ... ساءني فيك أيها الخلصان

---

(1) حياة ابن الرومي لا تزال سراً مكتوماً في ضمير الزمان فلم يترجم به أحد ترجمة وافية. وقد ذكر الأستاذ كليمان هنار (Cl Hnart) أن أبا عثمان سعيد الخالدي من علماء سيف الدولة كتب ترجمته مفصلة، ولكن أين هي؟.

فتحك المهرجان بالحول والعور أرانا ما أعقب المهرجان
كان من ذاك فقدك ابنتك الحرة مصبوغة بها الأكفان
وتجافي مؤمل لي جليل لج فيه الجفاء والهجران
قف إذا طيرة تلقتك وانظر واستمع ثم ما يقول الزمان
خبَّر الله أن مشأمة كانت لقوم وخبَّر القرآن

وبلغ من تطير ابن الرومي أنه كان يقيم الأيام لا يخرج من داره إذا قرعت أذنه صبيحة اليوم كلمة سيئة. وله في ذلك أخبار غريبة مع الأخفش. وكان هذا الشاعر فاحش الهجو شديده حتى خشيه الكبراء والوزراء لذلك. وكان أبو الحسن القاسم ابن عبيد الله وزير المعتضد لا يفتأ حذراً منه خائفاً من هجائه، ولا يكاد يصدق أنه يسلم من لسانه. وكان هذا الوزير شريراً سفاكاً للدماء، فدس عليه من سمه في أكله وهو حاضر. فلما أحس ابن الرومي بالسم قام، فقال له الوزير: إلى أين؟ فقال إلى الموضع الذي بعثت بي إليه! فقال له سلم على والدي. فقال: ليس طريقي على النار. ولحق بمنزله فأقام به أياماً. وكان الطبيب يتردد عليه فزعم أنه غلط في بعض العقاقير، فقال وقد سأله نفطويه النحوي وهو يجود بنفسه:

غلط الطبيب علي غلطة مورد عجزت موارده عن الإصدار
والناس يلحون الطبيب وإنما غلط الطبيب إصابة الأقدار

شعره

كان في الناس من يعير ابن الرومي جنسيته، وينتقص لأجلها شاعريته كما يؤخذ من قوله:

كم عائب كل شيء وكل ما فيه عيب
قد تحسن الروم شعراً ما أحسنته العرب

يـــا منكـــر المجـــد فـــيهم ألـــيس مـــنهم صـــهيب؟[1]

ولكـن هـذه الجنسـية كـان لهـا الأثـر الأظهـر والفضـل الأكبـر فـي نبوغـه، فإنـه جمـع إلـى تعمـق الآريـين فـي الفكـر، تفـوق الساميين فـي الخيـال؛ وضـم إلـى دقـة الـروم فـي التصـور، قـوة العـرب فـي التصـوير. فامتـاز بتوليـد المعنـى واستقصـائه حتـى لا بتـرك فيـه بقيـة لغيـره. ومـن ثـم طالـت قصـائده مـن غيـر تكريـر ولا سـقط. وقلمـاً رأينـا شـاعراً يسـلم علـى الطـول وتتسـاوى أجـزاء قصـيدته فـي الحسـن والقـوة. ولابـن الرومـي براعـة نـادرة فـي وصـف الشـيء وتشـبيهه، وقـدرة غريبـة علـى العتـاب والهجـاء، لمـا كـان ينمـي بـه مـن جفـاء الأصـدقاء، وإعـراض الكبـراء، ولحـدة طبعـه وضـيق خلقـه. وهـو فـي منزلـة أبـي تمـام والبحتـري، وربمـا فضـلهما أحيانـاً؛ لأنـه قـال فـي كـل فنـون الشـعر المعروفـة (وزاد عليهـا زيـادة لـو وزعـت علـى عشرة شعراء لأحلتهم منازل الفحول).

علـى أنـه يسـق أحيانـا فيطلـب صـحة المعنـى ولا يبـالي حيـث وقـع مـن هجنـة اللفـظ وخشـونته. ولـو أنـه نشـأ نشـأة عبـد الله ابـن المعتـز لمـا كـان لـه معـه ذكـر فـي بـاب التشـبيه والمـح؛ فـإن ابـن الرومـي أعلـى كعبـاً منـه فـي الشـعر، ولكـن علمـه بالمشـبهات دون علـم الملـوك وقـد قـال لـه بعـض معاصـريه يلومـه لـم لا تشـبه كتشـبيهات ابـن المعتـز؟ فقـال لـه: أنشـدني مـن قولـه الـذي اسـتعجزتني عـن مثلـه. فأنشده قوله في الهلال:

أنظـر إليـه كـزورق مـن فضـة قـد أثقلتـه حمولـة مـن عنبـر؟

فقـال لـه زدنـي. فأنشـده قولـه فـي الآذريـون، وهـو زهـر أصـفر فـي وسـطه خمـل أسود:

كـــــأن آذرْيونَهـــــا غـــبَّ ســـماء هاميـــة

مـــداهنٌ مـــن ذهـــب فيهـــا بقايـــا غاليـــة

---

(1) صهيب بن سنان بن مالك الرومي صحابي جليل، وهو أول من أسلم من الروم، توفى سنة 38 أو 39 هـ

فصاح واغوثاه! لا يكلف الله نفساً إلا وسعها. ذاك إنما يصف ماعون بيته لأنه ابن خليفة، وأنا أي شيء أصف؟ ولكن أنظر إذا وصفت ما أعرف أين يقع قولي من الناس. فهل لأحد قط مثل قولي في قوس الغمام:

وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفا ... من الجود كنا والحواشي على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأخضر ... على أحمر في أصفر إثر مبيض
كأذيال خود أقبلت في غلائل ... مصبغة والبعض أقصر من بعض

وقولي في صانع الرقاق:

ما أنس لا أنس خبازاً مررت به ... يدحو الرقاقة مثل اللمح للبصر
ما بين رؤيتها في كفه كرة ... وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة ... في لجة الماء يلقي فيه بالحجر

نموذج من شعره

من قوله، وقال ما سبقني أحد إلى هذا المعنى:

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم ... في الحادثات إذا دجون نجوم
منها معالم للهدى، ومصابح ... تجلو الدجى، والأخريات رجوم

ومن معانيه المخترعة قوله:

وإذا امرؤ مدح امرأ لنواله ... وأطال فيه فقد أراد هجاءه
لو لم يقدر فيه بعد المستقى ... عند الورود لما أطال رشاءه

وكان هو يطيل.

وقوله:

توددت حتى لم أجد مُتَوَدِّدا ... وأفنيت أقلامي عتاباً مُردّدا
كأني أستدنى بك ابن حَنِيَّة[1] ... إذا النزع أدناه من الصدر أبعدا

(1) ابن حنية كناية عن القوس.

ومن بدائع قوله في الشباب:

رأيت سواد الرأس واللهو تحته كليل وحلم بات رائيه ينعم

فلما اضمحل الليل زال نعيمه فلم يبق إلا عهده المتوهم

وقوله من قصيدة يصف الشمس في الأصيل:

وقد رنقت شمس الأصيل ونفضت على الأفق الغربي ورسا مزعزعا

وودعت الدنيا لتقضي نحبها وشول باقي عمرها فتشعشعا

ولاحظت النوار وهي مريضة وقد وضعت خدا إلى الأرض أضرعا

كما لاحظت عواده عين مدنف توجع من أو صابه ما توجعا

ظلت عيون النور تخضل بالندى كما اغرورفت عين الشجيّ لتدمعا

يراعينها صوراً إليها روانيا ويلحظن ألحاظاً من الشجو خشعاً

وبين إغضاء الفراق عليهما كأنهما خلا صفاء تودعا

وقد ضربت في خضرة الروض صفرة من الشمس فاخضر اخضراراً مشعشعا

وأذكى نسيم الروض ريعان ظله وغنى مغنى الطير فيه وسجعا

وغرد رَيعيُّ الذباب خلاله كما حَثْحَثَ النشوان صنجاً مشرعا

فكانت أرانين الذباب هناكمو على شدوات الطير ضرباً موقعاً

ابن المعتز

(249 – 296 هـ)

نشأته وحياته

هو أمير المؤمنين أبو العباس عبد الله ابن الخليفة المعتز، ولد في بيت الملك وموئل الخلافة، وربي في باحة النعيم وموطن الجلالة، فنشأ نبيل النفس دقيق الحس، قوي الشعور بالجمال، ولوعاً بالأدب والموسيقى. تأدب على شيوخ الأدب في عصره كالمبرد وثعلب، وشارك في أكثر العلوم النقلية والعقلية، وشغله الأدب والطرب واللعب عن دسائس القصر ومطامع الخلافة فكان كما وصف نفسه:

قليل هموم القلب إلا للذَّةٍ ... يُنَعِّم نفساً آذنت بالتنقل

فإن تطلبه تقتنصه بحانة ... وإلا ببستان وكرم مظلل

ولست تراه سائلا عن خليفة ... ولا قائلا من يعزلون ومن يلي

ولا صائحاً كالعير في يوم لذة ... يناظر في تفضيل عثمان أو علي

إلا أن جماعة من شيعته لما رأوا ضعف المقتدر واستبداد المماليك وسوء سياستهم خلعوه وبايعوه ابن المعتز فما تبوأ العرش إلا يوما وليلة، لأن أنصار المقتدر لم يشاءوا التسليم راضين. فتحزبوا وحاربوا أعوان ابن المعتز فشتتوهم، وأعادوا المقتدر إلى دسته. واختفى الخليفة الشاعر في دار الجصاص الجوهري، فتقحموا عليه الدار واعتقلوه. ودفعه المقتدر إلى مؤنس الخادم فخنقه وسلمه إلى أهله ملفوفاً في كساء.

شعره

لنشأة ابن المعتز أثر ظاهر في شعره. فهو رقيق اللفظ، سهل العبارة، صافي الأسلوب، لرقة طبعه وسهولة خلقه، وصفاء خاطره. وهو بليغ الاستعارة رائع التشبيه، دقيق الوصف، لدقة حسه، ولطف شعوره، وامتلاء ذهنه بروائع الجمال وبدائع الخيال ورونق الحضارة. وكان يقول الشعر إرضاء لنفسه وتصويراً

لحسه، فبرئ من كذب المدح ولؤم الهجاء، وانصراف إلى وصف الطبيعة ومجالس الأنس ومطاردة الصيد ومراسلة الإخوان. وله ولع بالبديع في حسن صوغ وقلة تكلف. ونثره لا يقل عن شعره في نقاء الأسلوب وجودة اللفظ ودقة التخيل.

مؤلفاته

لابن البديع المعتز كتاب البديع [1]، وهو أول مصنف في هذا الفن، جمع فيه سبعة عشر نوعاً منه. وكتاب مكاتبات الإخوان بالشعر، وكتاب الجوارح والصيد، وكتاب أشعار الملوك، وكتاب طبقات الشعراء، وكتاب الزهد والرياض، وتصانيف أخرى أغلبها مفقود. وقد طبع ديوانه بالقاهرة في جزأين.

نموذج من شعره

كن جاهلا أو فتجاهل تفز ... للجهل في ذ الدهر جاه عريض

والعقل محروم يرى ما يرى ... كما ترى الوارث عين المريض

وقال: أقتلا همي بصرف عقار ... واتركا الدهر فما شاء كانا

إن للمكروه لذعة هَم ... فإذا دام على المرء هانا

وقال:

ونسيم يبشر الأرض بالقطر ... كذيل الغلالة المبلول

ووجوه البلاد تنتظر الغيث ... انتظار المحب رجع لرسول

وقال:

أعاذل قد كبرت على العتاب ... وقد ضحك المشيب على الشباب

رددت إلى التقى نفسي فقرت ... كما رد الحسام إلى القراب

---

(1) نشره عام 1935 الأستاذ أغناطيوس كراتشوفيسكي المستشرق الرومي وقد صدره ببحث اللغة الإنجليزية عن الكتاب والنسخة التي نقل عنها، وذيله بترجمة لابن المعتز أبان فيها عن أثر الكتاب في الأدب العربي.

وقال في مقبرة:

وسكان دار لا تزاور بينهم على قرب بعض في المحلة من بعض
كأن خواتيمها من الطين فوقهم فليس لهم حتى القيامة من فض

وقال:

كم حاسد حنق علي بلا جرم فلم يضررني الحنق
متضاحك نحوي كما ضحكت نار الذبالة وهي تحترق

وقال:

انظر إلى حسن هلال بدا يهتك من أنواره الحِندِسا
كمنجل قد صيغ من فضة يحصد من زهر الدجى نرجسا

وقال:

قلبي وثاب إلى ذا وذا ليس يرى شيئاً فيأباه
يهيم بالحسن كما ينبغي ويرحم القبح فيهواه

وقال:

من لي بقلب صيغ من صخرة في جسد من لؤلؤ رطب
جرحت خديه بلحظي فما برحت حتى اقتص من قلبي

وقال:

ولقد قضت نفسي مآربها وقضيت غيا مرة ورشد
ونهار شيب الرأس يوقظ من قد كان في ليل الشباب رقد

وقال:

وإني على إشفاق عيني من البكا لتجمع مني نظرة ثم أطرق
كما حلئت عن ماء برد طريد تمد إليه جيدها وهي تفرق

وقال أيضاً وإشارته إلى الديك:

صفق إما ارتياحه لسنا الفجر وإما على الدجى أسفا

ويقال إن له هذا الموشح المشهور، ولا ندري إن كان ابتداعه أم اتبع فيه الأندلسيين:

أيها الساقي إليك المشتكي! قد دعوناك وإن لم تسمع

* * * * *

ونديم همت في غرته

وبشرب الراح من راحته

كلما استيقظ من سكرته

جذب الكأس إليه واتكى وسقاني أربعاً في أربع

* * * * *

ما لعيني بالنظر!

أنكرت بعدك ضوء القمر

وإذا ما شئت، فاسمع خبري:

عشيت عيناي من طول البكا وبكى بعضي على بعضي معي!

* * * * *

غضن بان مال من حيث التوى

مات من يهواه من فرط الجوى

خفق الأحشاء موهون القوى

كلما فكر في العين بكى ويحه! يبكي لما لم يقع!

* * * * *

ليس لي صبر، ولا لي جلد

يـــا لقـــومي عـــذلوا واجتهـــدوا!

أنكـــروا شـــكواي ممـــا أجـــد

مثـــل حـــالي حقـــه أن يشـــتكي؟ كمـــــد اليـــــأس وذل الطمـــــع!

* * * * *

كبـــد حـــرى، ودمـــع يكـــف

يـــذرف الـــدمع ولا ينـــذرف

أيهـــا المعـــرض عمـــا أصـــف!

قـــد نمـــا حبـــي بقلبـــي وزكـــا لا تقـــل فـــي الحـــب إنـــي مـــدعي

الشريف الرضي

(259 – 404 هـ)

نشأته وحياته

ولد أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوي ببغداد، ونشأ في حجر والده، ودرس العلم في طفولته؛ فبرع في الفقه والفرائض؛ وفاق في العلم والأدب، وقال الشعر وعمره لا يزيد على عشر سنين. فلما بلغ التاسعة والعشرين من عمره خلف أباه في نقابة الطالبيين سنة 388، ثم ضمت إليه مع النقابة سائر الأعمال التي كان يليها أبوه، وهي النظر في المظالم والحج بالناس.

وبقي في هذه الأعمال حيناً من الدهر حتى تغير عليه الخليفة القادر لاتهامه عنده بالميل إلى العلويين الفاطميين بمصر فصرفه عنها، فعاش عيش القانع الشريف حتى قبضه الله إليه في المحرم من سنة 404 ودفن بداره في الكوخ.

صفته وأخلاقه

كان الشريف أبي النفس عالي الهمة، سميت به عزيمته إلى معالي الأمور فلم يجد من الأيام معيناً عليها وكان عفيفاً لم يقبل من أحد صلة ولا جائزة؛ حتى بلغ من تشدده في العفة أن رد ما كان جارياً على أبيه من صلات الملوك والأمراء، واجتهد بنو بويه أن يحملوه على قبول صلاتهم فما استطاعوا.

شعره

نهج الرضى في شعره منهج الأقدمين من الشعراء في جزالة اللفظ وفخامة المعنى. وشعره أشبه بشعر البحتري [1] إلا أنه غلب في الفخر والحماسة، وتنزه عن عبث الوليد ومجونه. قال الثعالبي: " وهو أشعر الطالبيين من مضلا منهم ومن غبر على كثرة شعوائهم المفلقين. ولو قلت إنه أشعر قريش لم أبعد عن

---

(1) تجد مثالا لذلك إذا وازنت بين قصيدة الشريف في مدح القادر بالله وبين قصيدة البحتري في مدح المتوكل وقد أتينا في ترجمة كل منهما بقطعة من قصيدته.

الصدق " ثم قال بعد ذلك: " ولست أدري في شعراء العصر أحسن تصرفاً في المراثي منه ". وكان على مكانته في الشعر راسخ القدم في الكتابة، بعيد الشأو في الترسل. ولو كان حقاً ما يقال من أن له يداً في نهج البلاغة لما تردد منصف في الحكم بأنه أكتب الكتاب في العربية؛ ن نهج البلاغة هو في المحل الثاني من كتاب الله وحديث رسوله بلاغة وبياناً:

مؤلفاته

ألف هذا الشاعر في معاني القرآن كتاباً يدل على تضلعه في النحو واللغة وأصول الدين، وكتابا آخر في مجازات القرآن. وله مجموعة رسائل وديوان شعر؛ ثم كتاب نهج البلاغة وهو ما جمعه من كلام أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب. ومن الناس من يميل إلى أن أكثر هذا الكتاب من صنع الشريف؛ لما فيه من التعرض للصحابة بالأذى والهجر، ولأن ما فيه من فلسفة الأخلاق، وقواعد الاجتماع، ودقة الوصف، وتكلف الصنعة، ليس في إمكان ذلك العصر ولا في طبعه. والظاهر أن الشريف جمع كل ما نسب إلى الإمام وفيه الصحيح والمشوب.

نموذج من شعره

قال من قصيدة له في مدح القادر بالله واستعطافه وقد ترسم فيها خطى البحتري في مدح المتوكل:

لله يوم أطلعتك به العلا ... علماً يزاول بالعيون ويرشف

لما سمت بك عزة موموقة ... كالشمس تبهر بالضياء وتومق

وبرزت في برد النبي وللهدى ... نور على أسرار وجهك مشرق

وكأن دارك جنة حصباؤها الجادي ... أو أنماطها الإستبرق

في موقف تغضي العيون جلالة ... فيه ويعثر بالكلام المنطق

وكأنما فوق السرير وقد سما ... أسد على نشزات غاب مطرق

والناس إما راجع متهيب ... مما رأى، أو طالع متشوق

مـــالوا إليـــك محبـــة فتجمعـــوا ورأوا عليـــك مهابـــة فتفرقـــوا
وطعنـت فـي غـرر الكـلام بفيصـل لا يســـتقل بـــه الســـنان الأزرق
وغرسـت فـي حـب القلـوب مـودة تزكـو علـى مـر الزمـان وتـورق
وأنـا القريـب إليـك فيـه ودونـه ليـدي عـدوك طـود عـز أعـدق
عطفـــاً أميـــر المـــؤمنين فإننـــا فـــي دوحـــة العليـــاء لا تتفـــرق
مـا بيننـا يـوم الفخـار تفلـوت أبـداً، كلانـا فـي المعـالي معـرق
إلا الخلافـــة ميزتـــك فـــإنني أنـا عاطـل منهـا وأنـت مطـوق

الطغرائي

(المتوفى سنة 513 هـ)

نشأته وحياته

هو العميد أبو إسماعيل الحسين بن علي المعروف بالطغرائي نسبة إلى مهنته أول حياته. فقد كان يكتب الطغراء (الطرة) في أعلى الكتب بخط خاص فيها نعوت السلطان وألقابه. ولد بأصبهان من أسرة فارسية ثم تقلب في ظل آل سلجوق حتى وزر للسلطان مسعود بالموصل، وصار ينعت بالأستاذ ويلقب بالمنشئ. فلما نشبت الحرب بين السلطان مسعود وبين أخيه السلطان محمود بالقرب من همذان وكانت النصرة لثانيهما أخذ الطغرائي أسيراً، ثم أغراه وزيره نظام الدين بقتله، ومالأه عليه بعض حسدته من رءوس الكتاب فرماه عنده بالإلحاد فقتل ظلماً سنة 513.

شعره

شعر الطغرائي عامر الأبيات، متين القافية، مختار اللفظ، يغلب فيه الفخر والحكمة. ونثره من طبقة شعره في إحكام الصنعة ورصانة الأسلوب. وله ديوان شعر كبير أكثره في مدح السلطان سعيد ابن ملك شاه ونظام الملك. وخير ما فيه قصيدته اللامية المشورة بلامية العجم، وهي من عيون الشعر ومختاره. قالها ببغداد يندب الزمان ويشكو الإخوان أثناء عطلة من العمل. وقد أفردها العلماء بالشروخ ما بين كبير وصغير. قال في مطلعها:

أصالة الرأي صانتني عن الخطل وحلية الفضل زانتني لدى العطل

مجدي أخيراً ومجدي أولاً شرع والشمس رأد الضحى كالشمس في الطفل

ومنها:

حب السلامة يثني هم صاحبه عن المعالي ويغري المرء بالكسل

فإن جنحت إليه فاتخذ نفقاً في الأرض أو سلما في الجو فاعتزل

ودع غمار العلا للمقدمين على ركوبها واقتنع منهن بالبلل

رضا الذليل بخفض العيش مسكنه والعِـزُّ تحـت رسـيم الأيْنُـقِ الـذلل

وقال وقد رزق مولوداً على كبر:

هـذا الصغير الـذي وافى على كبر أقـر عينـي ولكـن زاد فـي فكـري

سبع وخمسون لو مرت على حجر لبـان تأثيرهـا فـي صـفحة الحجـر

ومن قوله في الفخر:

أبـى الله أن أسـمو بغيـر فضـائلي إذا مـا سـما بالمـال كـل مسـود

وإن كرمـت قبلـي أوائـل أسـرتي فـإني بحمـد الله مبـدأ سـؤددي

ومـال المـال إلا عـارة مسـتردة فهـلا بفضـلي كـاثروني ومحتـدي

إذا لـم يكـن لـي فـي الولايـة بسـطة يطـول بهـا بـاعي وتسـطو بهـا يـدي

ولا كـان لـي حكـم مطـاع أجيـزه فـأُرغم أعـدائي وأكبـت حسـدي

فأعـذر إن قصـرت فـي حـق مجتـد وآمـن أن يعتـادني كيـد معتـدى

أأكفـي ولا أكفـي؟ وتلـك غضاضـة أرى دونهـا وقـع الحسـام المهنـد

من الحزم ألا يضجر المرء بالذي يعانيـه مـن مكروهـة فكـأن قـد

إذا جلدي في الأمر خان ولـم يعن مريـرة عزمـي نـاب عنـه تجلـدي

ومـن يسـتعين بالصـبر نـال مـراده ولـو بعـد حـين. إنـه خيـر مسـعد

الشعر والشعراء في الشام

كانت دمشق في عهد الأمويين حاضرة الخلافة، وقاعدة الملك، ومقر الجند، ومعقل الإسلام، ومناط الأمل. فشغلها أدب السيف عن أدب القلم، وألهاها عن حمل الكتاب حمل العلم، وخلجتها خوالج الرياسة والسياسة عن راية الأدب وقرض الشعر، فتخلت عنهما للعراق والحجاز، فزخرت مدنهما بالشعراء، وغصت مجالسهما بالأدباء. وقد عمت كيف كان أثر معاوية وأخلاقه في إذكاء هذه النهضة.

فلما أدال الله العباسيين من الأمويين والفرس من العرب، وبغداد من دمشق، فترت حركة الأدب في الشام، فما كان يصدر عنها ولا يرد إليها، حتى تملك بنو حمدان في القرن الرابع على حلب، وهم كما قال الثعالبي: ملوك وأمراء ألسنتهم للفصاحة، وأيديهم للسماحة، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم، وواسطة قلادتهم " وهو أديب بارع وشاعر مطبوع وملك ممدح؛ فوطّأ كنفه للأدباء والشعراء والعلماء، حتى (ليال إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر، وإنما السلطان سوق يجلب إليها ما ينفق لديها).

والطريقة الغالبة على أهل الشام في الشعر هي طريقة البحتري في إيثار اللفظ الجزل، والأسلوب الفصيح السهل، دون تعمق في المعنى، ولا إفراط في الإيجاز. وقد سمع الثعالبي عن الصاحب ابن عباد أنه كان يعجب بها، وينهل من أدبها. وروى هو أيضاً عن الخوارزمي أنه قال: " ما فتق قلبي، وشحذ فهمي، وصقل ذهني وأرهف حد لساني، وبلغ بي هذا المبلغ إلا تلك الطرائف الشامية، والطائف الحلبية، التي علقت بحفظي، وامتزجت بأجزاء نفسي، وغصن الشباب رطيب ".

وكفى الشام فخراً أن أعادت إلى العرب في أبي تمام والبحتري والمتنبي وأبي فراس وأبي العلاء سبق الشعر بعد أن غلبهم عليه متعربو الفرس وأبناء الموالي في صدر هذا العصر.

وسنقتصر على الترجمة بهؤلاء النابهين منهم، فإن الإحاطة بهم، والكشف عن مناحي أدبهم، لا يتسع لهما صدر هذا المختصر.

أبو تمام

(188 - 231 هـ)

نشأته وحياته

ولد حبيب بن أوس الطائي بقرية يقال لها جاسم من أعمال دمشق. ثم انتقل أبوه إلى دمشق يحترف الحياكة وهو معه في خدمته. فلما ترعرع غادرها إلى مصر فكان يسقي الماء بجامع عمرو ويستقي من أدب علمائه. ولم يزل يحفظ الأشعار ويحاكي الشعراء فيصادفه التوفيق مرة ويخطئه أخرى؛ حتى بلف من العشر مبلغا لم يزاحمه فيه أحد من عصره. وقد سار به شعره إلى أسواق لأدب في أنحاء البلاد، فغادر مصر يغشى منازل الكرماء ويتفيأ ظل النعمة. فأقبل عليه عشاق الأدب والمدح إقبالا لم يبق لغيره مجالا، حتى لم يستطيع أحد من الشعراء أن يكسب درهما بالشعر في حياته. ثم اتصل بأحمد ابن المعتصم ومدحه فأجازه بولاية بريد الموصل فوليه عامين ثم مضى لسبيله قبل أن يتم الأربعين.

صفاته وأخلاقه

كان أبو تمام أسمر اللون طويل القامة فصيحا حلو الكلام فيه تمتمة يسيرة وكان ذكي الطبع حاضر البديهة قوي الذاكرة. قيل: إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة غير القصائد والمقطوعات. وكتابا الحماسة وفحول الشعراء ناطقان بذلك. ويدل على فطنته وسرعة خاطره أنه لما أنشد أحمد ابن المعتصم قصيدته السينية التي يقول في مطلعها:

ما في وقوفك ساعة من باس تقضي ذمام الأربع الأدراس

ووصل إلى قوله فيها:

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

قال أبو يوسف الكندي الفيلسوف وكان حاضراً: الأمير فوق من وصفت. وما زدت على أن شبهته بأجلاف العرب. فأطرق أبو تمام قليلا ثم قال على البديهة:

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلا شرودا في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنِّبراس

ولما أخذت منه القصيدة لم يجدوا فيها هذين البيتين فعجبوا. وقال الفيلسوف للخليفة: مهما يطلب فأعطه؛ فإن فكره يأكل جسمه كما يأكل السيف المهند غمده، ولا يعيش كثيرا: فولاه بريد الموصل.

شعره

أبو تمام رأس الطبقة الثانية من المولدين. جمع بين معاني المتقدمين والمتأخرين، وظهر والحضارة راقية، والعلوم مترجمة، فحصف عقله ولطف خياله بالاطلاع عليها. واستنبط من ذلك طريقته التي آثر فيها تجويد المعنى على تسهيل العبارة فكان أول من أكثر من الاستدلال بالأدلة العقلية والكنايات الخفية ولو أفضى ذلك إلى التعقيد. وكأنه لما رأى أن سلاسة اللفظ فاتته أراد أن يجبر ذلك الكسر فتوخى الجناس والمطابقة والاستعارة، فسلم له بعض واعتل عليه بعض، فصار كالكلف في صفحة البدر. ومع هذا قد سلم له من كلامه جملة لم يحم حولها السابقون وقصر عنها اللاحقون: معان مبتكرة، وألفاظ متخيرة، ضمنها من الأمثال والحكم ما زاد في ثروة الأدب العربي، ومهد لمن خلفه الطريق فسلكها المتنبي وأبو العلاء إلى حكمهم وأمثالهم. ولغلبة الحكمة عليه قيل: " أبو تمام والمتنبي حكيمان، والشاعر البحتري "، وقد كثر اختلاف الناس فيه؛ فمنهم من تعصب له وأفرط حتى فضله على كل سلف وخلف. ومنهم من عمد إلى جيده فطواه، وإلى رديئة فرواه. ولكن لسان المدح كان أغلب، فقد فضله من الرؤساء والعظماء ما لا قبل للطاعنين بهم. قال محمد ابن عبد الملك الزيات وقد مدحه بقصيدة شاعرة: " يا أبا تمام إنك لتحلي شعرك من جواهر لفظك وبديع معانيك ما يزيد حسناً على بهي الجواهر

في أجياد الكواعب. وما يدخر لك شيء من جزيل المكافأة إلا ويقصر عن شعرك في الموازاة ".

وقد جمع شعره في ديوان طبع مراراً. وله غيره كتابا الحماسة وفحول الشعراء جمع فيهما عيون الشعر وغرره في الجاهلية والإسلام. وقد أحسن في الاختبار جد الإحسان حتى قيل إنه في اختياره أبلغ منه في شعره.

نموذج من شعره

من أبدع قصائده قوله:

غدت تستجير الدمع خوف نوى غد وعاد قتاداً عندها كل مرقد

وأنقذها من غمرة الموت أنه صدود فراق لا صدود تعمد

فأجرى لها الإشفاق دمعاً مورداً من الدم يجري فوق خد مورد

ويقول فيها في الحث على الاغتراب؛ ولو تأملت وجدته يتوخى الطباق في كل بيت:

ولكنني لم أحو وفراً مجمعاً ففزت به إلا بشمل مبدد

ولم تعطني الأيام نوماً مسكناً ألذ به إلا بنوم مشرد

وطول مقام المرء في الحي مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدد

فإني رأيت الشمس زيدت محبة على الناس أن ليست عليهم بسرمد

ومن قوله:

نقل فؤادك[1] حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل

وقال في رثاء محمد بن حميد الطوسي:

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

---

(1) من عجيب توارد الخواطر أن هذا المعنى بعينه سار به مثل فرنسي وهو:

Lhomme rovient tonjours A ses premiers amonrs

توفيت الآمال بعد محمد وأصبح في شغل عن السفَر السَّفْر
ألا في سبيل الله من عطلت له فجاج سبيل الله وانثغر الثغر
فتى كلما فاضت عيون قبيلة دما ضحكت عنه الأحاديث والذكر
فتى دهره شطران فيما ينوبه قفي بأسه شطر وفي جوده شطر
فتى مات بين الطعن والضرب موته تقوم مقام النصر إذ فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
تردى ثياب الموت حمراً فما دجا لها الليل إلا وهي من سندس خضر

وقال في المدح:

حول، لأفعاله مرتع الذم (م) ولا عرضه مراح العيوب
سرح قوله إذا ما استمرت عقدة العي في لسان الخطيب
لا معنى بكل شيء ولا كل (م) عجيب في عينه بعجيب
ليس يعرى عن حالة من طراز الـ مدح من راجز بها مستثيب
وإذا كف راغب سلبته راح طلقا كالكواكب المشبوب
ما مهاة الحجال مسلوبة أظرف حسنا من ماجد مسلوب
واجد بالخليل من برحاء الشوق وجدان غيره بالحبيب
كل شعب كنتم به آل وهب فهو شعبي وشعب كل أديب
إن قلبي لكم لكالكبد الحري وقلبي لغيركم كالقلوب

وقال أيضاً:

إذا حركته هزة المجد غيرت عطايا الأماني الكواذب
يرى أقبح الأشياء أوبة آمل كسته يد المأمول حلة خائب
وأحسن من نور تفتحه الصبا بياض العطايا في سواد المطالب

البحتري

(206 - 284 هـ)

نشأته وحياته

أبو عبادة الوليد ابن عبيد الله الطائي عربي صميم ولد بمنبج (بين حلب والفرات) سنة 206 ونشأ في البادية بين قبائل طي. وغيرها فغلبت عليه فصاحة العرب. ثم خرج إلى بغداد فلقي أبا تمام ولزمه حتى تخرج عليه واقتبس طريقته في البديع. وروى عن كثير من العلماء كأبي العباس المبرد وظل صنيعة لأبي تمام يردد صداه، ويترسم خطاه، وحبيب يرشده ويعضده لأنه طائي مثله، حتى قال له يوماً. " أنت والله يا بني أمير الشعراء غداً بعدي "، فصدق الله نبوءته. وأصبح البحتري بعد وفاة أبي تمام سائر الشعر طائر الذكر إماماً في الأدب والقريض. وأقام بالعراق في خدمة المتوكل والفتح ابن خاقان وزيره إلى أن قتلا على مشهد منه، فرجع بعدئذ إلى منبج. وكان يختلف أحياناً إلى سراة بغداد " وسر من رأى " فيمدحهم حتى مات سنة 284.

صفاته وأخلاقه

كان البحتري على أدبه وفضله ورقته من أوسخ خلق الله ثوباً وأبخلهم على نفسه وغيره. وكان من ابغض الناس إنشاداً: يتشادق ويتزاور في مشيته جانباً أو القهقري، ويهز رأسه ومنكبيه أخرى، ويشير بكمه ويقف عند كل بيت ويقول: أحسنت والله! ثم يقبل على المستمعين قائلا: ما لكم لا تقولون أحسنت؟ هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله. ولكنه كان منصفاً يعترف بالفضل لأهله ولا يدعي ما ليس له. قال له بعض الناس وقد سمع شعره: أنت أشعر من أبي تمام. فقال: ما ينفعني هذا القول ولا يضر أبا تمام. والله ما أكلت الخبز إلا به، ولوددت أن الأمر كما قالوا، ولكني والله تابع له، آخذ منه لائذ به، نسيمي يركد عند هوائه، وأرضي تنخفض عند سمائه!.

شعره

ترسم البحتري خطو أبي تمام في الشعر ومضى على أثره في البديع، إلا أنه أجاد في سبك اللفظ على المعنى " وأراد أن يشعر فغنى " كما قال فيع ابن الأثير واستمد معانيه من وحي الخيال وجمال الطبيعة لا من قضايا العلم والمنطق، فأعاد للشعر ما ذهب من بهجته وروعته. وإلى ذلك أشار المتنبي بقوله: " أنا وأبو تمام حكيمان، والشاعر البحتري "، ثم صارت له طريقة خاصة في الجزالة والعذوبة والفصاحة امتاز بها من أستاذه ومدربه، نهجها معاصروه ومن جاء بعدهم من الشعراء وعرفت بطريقة أهل الشام. وقد تصرف أبو عبادة في فنون الشعر إلا في الهجاء، فإن بضاعته فيه نرزة وجيده منه قليل. ويقال إنه أحرق هذا النوع قبل موته وهو الأرجح ولم يسلم شعره من أساقط الغث لكثرته، وإنما يمتاز بالإجادة في المدح والقصد فيه، والقدرة على تصوير أخلاق الممدوح، والإبداع في وصف القصور الفخمة والأبنية العجيبة، كوصف إيوان كسرى [1] وبركة المتوكل، وقصر المعتز بالله. وقصائده تكاد لا تخلو من افتتاح بالغزل. وقد جمع شعره أبو بكر الصولي ورتبه على الحروف. وله غيره كتاب معاني الشعر وحماسة البحتري. وهي كحماسة أبي تمام، إلا أنها تمتاز بكثرة أبوابها وخلوها مما تنبو الأسماع عنه؛ وقد طبعت في بيروت.

نموذج من شعره

من قوله في وصف بركة المتوكل:

تنصب فيها وفود الماء معجلة ... كالخيل خارجة من حبل مجريها

كأنما الفضة البيضاء سائلة ... من السبائك تجري في مجاريها

إذا علتها الصبا أبدت لها حبكا ... مثل الجوانش مصقولاً حواشيها

فحاجب الشمس أحياناً يضاحكها ... وريق الغيث أحياناً يباكيها

---

(1) قصيدة البحتري في وصف إيوان كسرى من بدائع الشعر العربي الخالد، لذلك أوردنا أكثرها في النماذج.

إذا النجوم تراءت في جوانبها لـيلا حسبت سماء ركبت فيها

وقال يمدح الخليفة المتوكل ويهنئه بعيد الفطر:

بالبر صمت وأنت أفضل صائم وبسنة الله الرضية تفطر
فانعم بيوم الفطر عينا إنه يوم أغر من الزمان مشهر
أظهرت عز الملك فيه بجحفل لجب يحاط الدين فيه وينصر
فالخيل تصهل والفوارس تدعى والبيض تلمع والأسنة تزهر
والأرض خاشعة تميد بثقلها والجو معتكر الجوانب أغبر
والشمس طالعة توقد في الضحى طوراً ويطفئها العجاج الأكدر
حتى طلعت بنور وجهك فانجلى ذاك الدجى وانجاب ذاك العثير
فافتن فيك الناظرون فإصبع يومي إليك بها وعين تنظر
ذكروا بطلعتك النبي فهللوا لما طلعت من الصفوف وكبروا
حتى أنهيت إلى المصلى لابسا نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع لله لا يزهى ولا يتكبر
فلو أن مشتاقا تكلف فوق ما في وسعه لسعى إليك المنبر
أبديت من فصل الخطاب بحكمة تنبي عن الحق المبين وتخبر
ووقفت في برد النبي مذكراً بالله تنذر تارة وتبشر

ومن قوله في الطيف:

إذا ما الكرى أهدى إلى خياله شفى قربه التبريح أو نقع الصدى
إذا انتزعته من يدي انتباهة حسبت حبيبا راح مني أو غدا
ولم أر مثلينا ولا مثل شأننا نعذب أيقاظا وننعم هجدا

المتنبي

(303 – 354 هـ)

نشأته وحياته

أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي ولد بالكوفة من أبوين فقيرين. كان أبوه سقاء بالكوفة. ثم سافر به وهو صغير إلى الشام متنقلا من البادية إلى الحاضرة يسلمه إلى المكاتب، ويردده في القبائل، ومخايله نواطق بفضله، ضوامن لنُجحه، حتى توفى أبوه وقد ترعرع الشاعر ونال حظه من علوم اللغة والأدب فأخذ يضرب في الأرض ابتغاء للرزق واكتسابا للمجد.

وكان المتنبي منذ نشأته كبير النفس عالي الهمة طموحا إلى المجد. بلغ من كبر نفسه أن دعا إلى بيعته[1] بالخلافة وهو لدن العود حديث السن. وحين كاد يتم له الأمر تأدى خبره إلى والي البلدة فأمر بحبسه. فكتب إليه من السجن قصيدة منها:

أمالك رقي ومن شأنه ... هبات اللجين وعتق العبيد

دعوتك عند انقطاع الرجاء ... والموت مني كحبل الوريد

دعوتك لما براني البلى ... وأوهن رجلي ثقل الحديد

تعجل في وجوب الحدود ... وحدي قبل وجوب السجود [2]

فأطلقه. ولكن حب الرياسة لم يزل متمكنا من قلبه إلى أن أخلق برد شبابه وتضاعفت ود عمره. وفي سنة 323 ادعى النبوة في الشام وفتن شرذمة من الناس بقوة أدبه وسحر بيانه. ولما سئل عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنه بشر بمجيئي وأخبر بنبوتي. فقال: لا نبي بعدي، وأنا اسمي في السماء (لا). وصنف كلاما عارض به القرآن. فلما اشتهر أمره قبض عليه لؤلؤ أمير حمص نائب الإخشيدية، فأوثقه ثم أطلقه بعد أن استتابه. وتفرق عنه أصحابه. فطفق

---

(1) اليتيمة 1 س 79.

(2) يريد: إني صبي لم أبلغ الحلم فيجب علي السجود، فكيف تجب علي الحدود؟.

يتجشم أسفارا أبعد من آماله، ولا زاد إلا صبره، ولا عدة إلا بأسه، كما يتجلى ذلك في مثل قوله:

وحيد من الخلان في كل بلدة إذا عظم المطلوب قل المساعد

وقوله:

ضاق صدري وطال في طلب الرزق قيامي وقل عنه قعودي

أبداً أقطع البلاد ونجمي في نحوس وهمتي في سعود

ولم يزل هكذا حتى اتصل بأبي العشائر والي أنطاكية من قبل سيف الدولة وامتدحه، فأكرم مثواه وقدمه إلى سيف الدولة وعرفه بمنزلته من الشعر والأدب. فضمه الأمير إليه وحسن موقعه عنده، فسلمه إلى الرواض فعلموه الفروسية والطراد. حتى لا يفارقه في الحرب ولا في السلم. وأفعم وطابه ودرت له أخلاف الدنيا على يده، حتى كان من قوله فيه:

تركت السرى خلفي لمن قل ماله وأنعلت أفراسي بنعماك عسجدا

وقيدت نفسي في هواك محبة ومن وجد الإحسان قيداً تقيداً

ولم يزل معه في حال حسنة حتى حدثت بينهما جفوة ففارقه [1] إلى مصر في سنة 346. ومدح كافوراً الإخشيدي وأبا شجاع. وأقام في مصر ردحاً من الزمن يرقب الفرصة من كافور فيصعد المجد على كاهله. فما هو إلا أن قال:

أبا المسك، هل في الكأس فضل أنا له فإني أغنى منذ حين وتشرب

وقال:

وهل نافعي أن ترفع الحجب بيننا ودون الذي أملت حجاب

وفي النفس حاجات وفيك فطانة سكوتي بيان عندها وخطاب

(1) أثر هذا الفراق في أبي الطيب فاضطرب أمره وتراجع شمره. ولما عوتب في آخر أيامه على ذلك قال: قد تجوزت في قولي، وأعفيت طبعي، واغتنمت الراحة منذ فارقت آل حمدان

حتى أوجس كافور منه خيفة، لتعاليه في شعره وطموحه إلى الملك، فزوى عنه وجهه، فهجاه وقصد بغداد. ولم يمدح الوزير المهلبي لأنه كان يترفع عن مدح غير الملوك، فشق ذلك على الوزير فأشلى عليه شعراء بغداد فنالوا من عرضه ومن شعره. ولكنه لم يجبهم، وذهب قاصداً أرجان لزيارة الفضل ابن العميد فكتب إليه الوزير الصاحب بن عباد يستزيره بأصبهان أ، يمدحه فلم يقم له وزناً، وأم عضد الدولة بشيراز. فأوغر عليه قلب الصاحب وأخذ يتتبع هفواته، وهو أعلم الناس بحسناته – وشن عليه هو وأشياعه حرباً قلمية، وألفوا الكتب في نقده ورموه بالسرقة والخروج عن الأساليب العربية، وهو لا يأبه لهم ذهاباً بنفسه وإعجاباً بشعره.

* * * * *

ولما حصل عند عضد الدولة أسبغ عليه نعمته ووصله بثلاثة آلاف دينار وخيول وثياب؛ ثم دس عليه من يسأله: أين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة؟ فقال له: هذا أجزل إلا أنه متكلف، وسيف الدولة كان يعطي طبعاً. فغضب عضد الدولة من ذلك. ويقال إنه جهز عليه فاتكاً الأسدي في قوم من بني ضبة، فعرض له بالصافية من سواد بغداد واقتتلا. فلما رأى الدائرة عليه هم بالفرار. فقال له غلامه: لا يتحدث الناس عنك بالفرار وأنت القائل:

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فقاتل حتى قتل هو وولده وغلامه في أواخر رمضان من سنة 354 هـ.

شعره

المتنبي شاعر من شعراء المعاني؛ وفق بين الشعر والفلسفة؛ وجعل أكثر عنايته بالمعنى؛ وأطلق الشعر من القيود التي قيده بها أبو تمام وشيعته، وخرج به عن أساليب العرب التقليدية. فهو إمام الطريقة الابتداعية [1] في الشعر

(1) الابتداعية كما قلنا من قبل ترجمة معنوية لكلمة Romqntique لأن أهل هذه الطريقة من الألمان والإنجليز والفرنسيين قد خرجوا على الطريقة الاتباعية Classique بإبتداع أسلوب جديد انتشر في أوروبا بعد عناء طويل ونضال عنيف بين أرباب الطريقتين. وإن في خروج أبي الطيب المتنبي

العربي. ولقد حظى في شعره بالحكم والأمثال، واختص بالإبداع في وصف القتال، والتشبيب بالأعرابيات، وإجادة التشبيه، وإرسال المثلين في بيت واحد، وحسن التخلص، وصحة التقسيم، وإبداع المديح، وإيجاع الهجاء. وأخص ما يميز المتنبي بروز شخصيته في شعره، وصدق إيمانه برأيه، وقوة اعتداده بنفسه، وصحة تعبيره عن طبائع النفس ومشاغل الناس وأهواء القلوب وحقائق الوجود وأغراض الحياة؛ ولذلك كان شعره في كل عصر مدداً لكل كاتب، مثلا لكل خاطب.

عيوب شعره

بيت المتنبي يضيق أحياناً بمعناه فيعسر فهمه، وتبعد غايته منه فيطيش سهمه، وقد بلغ من إهماله اللفظ أن وقع في بعض المساوئ، كاستكراه اللفظ، وتعقيد المعنى، واستعمال الغريب، وقبح الطالع، ومخالفة القياس، وكثرة التفاوت في شعره، والخروج في المبالغة إلى الإحالة، كقوله:

ولا الضعف حتى يبلغ الضعف ضعفه ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف

وقوله:

أنى يكون أبا البرايا آدم وأبوك والثقلان أنت محمد[1]

وقوله:

لو لم تكن من ذا الورى ألذ منك هو عقمت بمولد نسلها حواء

والاستشهاد على كل ذلك يخرج بنا إلى التطويل فارجع إلى يتيمة الدهر للثعالبي.

=

وابن هانئ الأندلسي وأبي العلاء المعري وأضرابهم على أساليب العرب المخصوصة وإطلاقهم الشعر من قيود الصناعة ما يشبه تلك الطريقة.

(1) تقديره: أني يكون آدم أبا البرايا وأبوك محمد وأنت الثقلان.

نموذج من شعره

قال يشكو الزمان:

لمي ترك الدهر من قلبي ولا كبدي ... شيئاً تتيمه عَيْنٌ ولا جيد
يا ساقي أخمر في كؤوسكما ... أم في كؤوسكما هم وتسهيد؟
أصخرة أنا؟ مالي لا تغيرني ... هذى المدام ولا تلك الأناشيد؟
إذا أردت كميت الخمر صافية ... وجدتها وحبيب النفس مفقود
ماذا لقيت من الدنيا؟ وأعجبها ... أني بما أنا باك منه محسود!

وقال يتفلسف:

نحن بنو الموت فما بالنا ... نعاف ما لا بد من شربه؟
تبخل أيدينا بأرواحنا ... على زمان هن من كسبه
فهذه الأرواح من جوه ... وهذه الأجسام من تربه
أو فكر العاشق في منتهى ... حسن الذي يَسبيه لم يسبه
لم ير قرن الشمس في شرقه ... فشكت الأنفس في غربه
يموت راعي الضأن في جهله ... موتة جالينوس في طبه
وربما زاد على عمره ... وزاد في الأمن على سربه
وغاية المفرط في سلمه ... كغاية المفرط في حربه

وقال:

نصيبك في حياتك من حبيب ... نصيبك في منامك من خيال
رماني الدهر بالأرزاء حتى ... فؤادي في غشاء من نبال
قصرت إذا أصابتني سهام ... تكسرت النصال على النصال
وهان فما أبالي الرزايا ... لأني ما انتفعت بأن أبالي

وقال:

صحب الناس قلبنا ذا الزمانا وعناهم من أمره ما عنانا
وتولوا بغصة كلهم منه وإن سر بعضهم أحيانا
ربما تحسن الصنيع ليالیه ولكن تكدر الإحسانا
وكأنا لم يرض فينا بريب الدهر حتى أعانه من أعانا
كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء في القناة سنانا
ومراد النفوس أصغر من أن نتعادى فيه وأن نتفاني
غير أن الفتى يلاقي المنايا كالحات ولا يلاقي الهوانا
ولو أن الحياة تبقى لحي لعددنا أضلنا الشجعانا
وإذا لم يكن من الموت بُدٌّ فمن العجز أن تموت جبانا

وقال أيضاً:

زودينا من حسن وجهك ما دام فحسن لوجوه حال تحول
وصلينا نصلك في هذه الدنيا فإن المقام فيها قليل

أبو فِراس الحمداني

(320 - 357 هـ)

نشأته وحياته

هو أبو الحارث ابن أبي العلاء ابن عم سيف الدولة. ولد بمنبج، ورُبي في حر النعيم بين أبهة الملك وعزة السلطان. فنشأ على خلال العظماء شجاعاً أبي النفس سليم الطبع، كريم الخلق، جامعاً بين أدبي السيف والقلم. وكان سيف الدولة معجباً بمحاسنه مؤثراً له على سائر قومه، فاصطنعه لنفسه، واصطحبه في غزواته، واستخلفه في أعماله؛ فكان الدرة الفريدة في تاج سيف الدولة، يقود جيوشه في الحرب، ويرأس كتابه في السلم. وكان النصر حليفه في كل وقائعه، فمالت إليه القلوب ولهجت بذكره الألسن، وانطلق لسانه برائع الشعر في الفخر والحماسة ووصف الحروب، حتى خانه الفوز فأسره الروم في بعض المواقع وهو جريح قد أصابه سهم بقى نصله في فخذه، فسجنوه بخرشنة، ثم نقلوه إلى القسطنطينية. وتعذرت المفاداة فلبث في السر أربع سنين ظهرت فيها أشعاره الروميات ملأى بعواطف الحب والحنين إلى أهله وأحبابه، ممثلة ما يكن صدره من لواعج الشوق لأمه العجوز وابنته الوحيدة، وعوامل الحب لسيف الدولة. ولم يزل أبو فراس يعالج مرارة الأسر وحرارة الشوق حتى تنوظر في الهدنة والأسرى فأطلقه الروم بعد أن أكرموه وبجلوه.

" ولما خرج قمر البيان من سراره، وأطلق أسد الحرب من إساره "، لم تمهله المنية أن يسترد ما ذه م شبابه أيام عذابه. فتوفى سيف الدولة وخلفه ولده أبو المعالي ابن أخت أبي فراس؛ فأراد الأمير الشاعر أن يضم إليه مدينة حمص فأبى عليه ذلك أبو المعالي، وجرت بينهما معركة قتل فيها أبو فراس وهو لدن العود غض الإهاب.

صفاته وأخلاقه

كان أبو فراس كما قدمنا بطلاً أبياً سخياً معجباً بشعره وبنفسه، كثير الفخر بأصله وقومه، عزوفا عن الشراب والمجون؛ فبرئ شعره من كل ذلك وانطبعت أخلاقه فيه. وهو القائل:

لئن خلق الأنام لحسو كأس ومزمار وطنبور وعود
فلم يخلق بنو حمدن إلا لمجد أو لبأس أو لجود

شعره

شعر أبي فراس على مثال الشعر القديم متانة وأسلوباً، إلا أن عليه رواء الطبع، وسمة الظرف، وعزة الملك. ولم تجتمع هذه الخلال قبله إلا في شعر عبد الله ابن المعتز. وكان الصاحب ابن عباد يقول. وقد تصرف هذا الشاعر في أغلب فنون الشعر فأجاد، إلا أن منزلته في الفخر والاستعطاف والعتاب أعلى، ورومياته أجل وأدل على فضله؛ فإن مثله لا يزكو به أن يمدح أميراً، أو يهجو صغيراً، أو يذيل مصون شعره بين الشراب والمجون، فقد علمنا كيف نشأ وأين درج. وله غزل رقيق تتضاءل فيه عزة الملك أمام سلطان الحب، فيكون أتم جلالا وأشد روعة. وزعم الثعالبي أن المتنبي كان يشهد له بالتبريز وبتجافي جانبه (فلا ينبري لمباراته، ولا يجترئ على مجازاته، وإنما لم يمدحه ومدح غيره من آل حمدان تهيباً له وإجلالا لا إغفالا)، وهو زعم لا يطمئن عليه القلب، ولا يقول به من عرف المتنبي.

نموذج من شعره

قال وقد سمع حمامة تنوح على شجرة بالقرب من سجنه بالقسطنطينية:

أقول وقد ناحت بقربي حمامة أيا جارتا لو تشعرين بحالي
معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى ولا خطرت منك الهموم ببال
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا تعالي أقاسمك الهموم تعالي
تعالي ترى روحا لدي ضعيفة تردد في جسم يعذب بالي

أيحمل محزون الفؤاد قوادم على غصن نائي المسافة عالي؟
أيضحك مأسور وتبكي طليقة ويسكت محزون ويندب سالي؟
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة ولكن دمعي في الحوادث غالي

ومن قصيدة له إلى سيف الدولة يستعطفه:

بِمَنْ يَثِقُ الإنْسَانُ فِيمَا يَنُوبُهُ وَمِنْ أينَ للحُرّ الكَرِيمِ صِحَابُ؟
وَقَدْ صَارَ هَذَا النّاسُ إلاّ أقَلَّهُمْ ذئاباً على أجسادهن ثياب
تغابيت عن قوم فظنوا غباوة بمفرق أغباناً حصى وتراب
إلى الله أشكو أننا بمنازل تحكم في آسادهن كلاب
تمر الليالي ليس للنفع موضع لدي ولا للمعتفين جناب
ولا شد لي سرج على متن سابح ولا ضربت لي بالعراء قباب
ستذكر أيامي نمير وعامر وكعب على علاتها وكلاب
أنا الجار لا زادي بطئ عليهم ولا دون مالي في الحوادث باب

ومنها:

وما زلت أرضي بالقيل محبة لديه وما دون الكثير حجاب
وأطلب إبقاء على الود أرضه وذكرى مني في غيرها وطلاب
كذلك الوداد المحض لا يرتجي له ثواب ولا يخشى عليه عقاب
وقد كنت أخشى الهجر والشمل جامع وفي كل يوم لقية وخطاب
فكيف وفيما بيننا ملك قيصر وللبحر حولي زخرةٌ وعباب!
أمن بعد بذل النفس فيما تريده أثاب بمر العتب حين أثاب؟
فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب!
وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خراب!
إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب

أبو العلاء المعري

(363 – 449 هـ)

نشأته وحياته

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي نسبة إلى تنوخ إحدى قبائل اليمن. ولد هذا الفيلسوف الحكيم بالمعرة من أبوين شريفين. فقد كان أبوه من أفاضل العلماء وجده قاضياً بالمعرة. فلما بلغ الرابعة من عمره أصيب بالجدري فذهب بيسرى عينيه وابيضت اليمنى؛ فنشأ ضريراً لا يعرف من الألوان إلا الحمرة لأنهم ألبسوه ثوبا معصفرا وهو مريض فكان هذا اللون أول ما عرف وآخر ما رأى. ولما أدرك سن التعلم أخذ أبوه يلقنه علوم اللسان العربي فتعلمها. وتلمذ بعد ذلك لنفر من علماء بلده فضم إلى صدره ما حوته صدورهم. ولم ير بعد ذلك فيمن حوله من سبقه إلى علم، أو اختص دونه بفهم، فانثنى إلى بيته وقد ناهز العشرين من عمره، وأخذ يدرس اللغة والأدب وينقب عن دقائق اللسان وخواص التركيب حتى تفوق في ذلك وبلغ منه ما لم يبلغه أحد. وفي سنة 392 هـ غادر المعرة إلى بلاد الشام. فزار مكتبة طرابلس، وعاج على اللاذقية، وكان بها دير للرهبان فنزل به وأقام بين أهله حتى درس العهدين القديم والجديد. وبعد أن طوف في بلاد الشام عزم الرحلة إلى بغداد مبعث العلم ومستقر العلماء ليدرس الحكمة اليونانية والفلسفة الهندية. وما أحس بمقدمه البغداديون حتى تقاطروا إلى لقائه ظمأ إلى أدبه. فأقام بينهم يأخذون عنه العلم والأدب ويبحث هو في علوم الفلسفة حتى جرى فيها شوطا بعيدا. ووجد أبو العلاء في بغداد بيئة صالحة وأرضاً زكية لبحث المسائل وغرس المبادئ. فأخذت آراؤه تظهر وتذيع. واتصلت أسبابه هناك بجماعة من الفلاسفة الأحرار كانوا يجتمعون كل جمعة في دار أبي أحمد عبد السلام ابن الحسن البصري أحدهم فأثر خلاطها في عقله وأدبه. وما كادت علائقه تتوثق بالبغداديين حتى فوجئ على بعد المزار بنعي أمه، وكان أبوه قد توفى قبلها، فوجد عليها وجدا شديدا، ونالت منه هذه النازلة. وكان الأمراء والدهماء قد أخذوا يرتابون في عقيدته ويشكون في أمره، فاضطربت حياته، واختلفت

أطواره وأعوزه المشفق والنصير. فنظر إلى العالم بمنظار أسود، وقرر في نفسه العزلة والخروج عن الدنيا. وعاد إلى المعرة سنة 400 فاعتقل عن الناس إلا عن تلاميذه. وسمى نفسه رهن المحبسين: العمى والمنزل. وظل عاكفا على التعليم والتأليف عازفا عن ملذات الحياة لا يأكل الحيوان ولا ما ينتج منه قانعا من الطعام والحلوى بالعدس والتين. ومن المال بثلاثين دينارا موقوفة عليه في كل عام، راضيا من اللباس والفراش بغليظ القطن وحصير البردي. وحرم على نفسه الزواج ضنا بنسله على لؤم الناس وبؤس الحياة. ولم تزل تلك حاله حتى استأثر به الله سنة 449، وقد أوصى أن يكتب على قبره هذا البيت:

هذا جناه أبي عليَّ (م) وما جنيت على أحد[1]

ولما مات وقف على قبره زهاء ثمانين ومائة شاعر فيهم الفقهاء والمحدثون والمتصوفون.

مواهبه وعقيدته

كان أبو العلاء إنسي الولادة وحشي الغريزة كما وصف نفسه؛ رقيق القلب سخيا وفيا، قامعا لشهواته، سيء الظن بالناس، شديد الحذر منهم، قوي الذاكرة، سريع الحفظ، وقد رووا عنه في ذلك الأعاجيب؛ فزعموا أنه كان يحفظ ما يفهم وما لا يفهم. وقد قال الشعر لإحدى عشرة سنة. ولم يمنعه ذهاب بصره من إجادة التشبيه ومشاركة المبصرين في ألعابهم: فقد كان يجيد لعب النرد والشطرنج ويدخل في كل باب من أبواب الهزل والجد.

وقد اختلف الناس في عقيدته، فمنهم من قال إنه ملحد يرى رأي البراهمة. وغيرهم يقول: إن شعره ككلام الصوفية له باطن وظاهر. وبعضهم

---

(1) اقرأ ترجمته مفصلة في كتاب (ذكرى أبي العلاء) للدكتور طه حسين. أو كتاب (أبو العلاء وما إليه) للراجكوتي. طبع بالقاهرة.

يقول: إن هذه الأشعار الضالة مدسوسة عليه من أعدائه. وأكثر الناس يرجح أنه كان شاكا، فتارة يثبت وأخرى ينفي، ولذلك كثر التناقض في شعره [1].

شعره

ينقسم شعر أبي العلاء إلى قسمين: شعر الشباب ويجمعه سقط الزند؛ وشعر الكهولة وقد وعته اللزوميات. فأما شعره في الشبيبة فكثير المبالغة، واضح التقليد بين التكلف، قلد فيه المتنبي واستمد منه أكثر معانيه، واستخف بقواعد اللغة، وجاري شعراء عصره في البديع. بيد أنه استعمل الغريب وأكثر في شعره من اصطلاحات العلوم؛ وقال في أكثر أغراض الشعر إلا في الخمر والمجون والصيد والهجاء. وقد سلم له في هذا الطور جملة من القصائد المختار في الرثاء والمدح والفخر.

---

(1) فبينما يقول مثلا:

عجبت لكسرى وأشياعه ... وغسل الوجوه ببول البقر
وقول النصارى إله يضام ... ويظلم حياً ولا ينتصر
وقول اليهود إله يحب ... رشاش الدماء وريح القتر
وقوم أتوا من أقاصي البلاد ... لرمي الجمار ولثم الحجر
فوا عجبا من مقالاتهم ... أيعمى عن الحق كل البشر؟

ويقول:

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت ... ويهود حارث والمجوس مضللة
اثنان أهل الأرض: ذو عقل بلا ... دين، وآخر دين لا عقل له

ويقول:

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة ... وحق لسكان البرية أن يبكوا
تحطمنا الأيام حتى كأننا ... زجاج ولكن لا يعاد له سبك

إذ به يقول:

خلق الناس للبقاء فضلت ... أمة يحسبونهم للنقاد
إنما ينقلون من دار أعمال ... إلى دار شقوة أو رشاد

وأما شعره في الكهولة فقليل المبالغة والتكلف؛ قد عارض فيه المتقدمين من العرب، فآثر اللفظ الجزل والأسلوب البدوي، وركب القوافي الصعبة، والتزم ما لا يلزم، وتشدد في إتباع القياس، وأكثر من البديع والجناس، وأودع شعره في هذا الطور فلسفته وآراءه. ولكنه حشاه بالألفاظ الغريبة والتراكيب الغامضة كأنما خاف شر الناس على تلك الثمرات الفكرية فحاطها بأشواك من الكلمات حتى لا يمتد إليها بنان ولا يتذوقها لسان. وقد ابتدع في شعره مناجاة الحيوان كمحاورة الديك والحمامة، ومناظرة الذئب والشاة. وهو أحكم الناس بعد أبي الطيب. ويختص دونه بالخيال الدقيق، وتصريف القول في الفلسفة والاجتماع وأخلاق البشر وأنظمة الحكومات والقوانين والأديان، وهو واحد الشعراء في هذه السبيل.

نثره

نثر أبي العلاء كشعره، يختلف في كهولته عنه في شبيبته. فقد كان كثير المبالغة، مفعما بالغريب، متكلف السجع، كثير الاصطلاحات العلمية. ثم حكم فلسفته في نثره فقلت المبالغة، وفاضت الجمل بالمعاني. ولم تخل كتابته من غموض يعني القارئ وتطويل بمله؛ فربما كتب الرسالة إلى بعض أصدقائه فيمعن فيها ويستطرد حتى تكون كتاباً ضخماً غريب المسائل كثير الفوائد.

مؤلفاته

أكثر مؤلفاته ذهبت بها ريح الحروب الصليبية، فلم يبق إلا سقط الزند، واللزوميات، والدرعيات، والفصول والغابات، وديوان رسائله، ورسالة الملائكة، ورسالة الغفران، وهي شديدة الشبه بالملهاة الإلهية لدانتي[1]، والفردوس المفقود لملتن[2] لأنه تخيل رجلا صعد إلى السماء ووصف ما شاهده هناك، وانتقد فيها الشعراء والرواة والنحاة بأسلوب روائي بديع[1].

---

(1) دانتي (Dante) زعيم الشعر الإيطالي وحبيب بياتريس (Beatriz) ومنشئ الملهاة الإلهية (La divine Comedie) ولد سنة 1265 وتوفى سنة 1341 م.

(2) ملتن (Miltion) شاعر إنجليزي شهير كان ناموساً لكرمويل فلما مات تضعضع أمره وخمل ذكره، ثم كيف بصره، فكان يملي على زوجته وابنتيه قصيدته الخالدة الفردوس

ثـم عبـث الوليـد. وهـو شـرح ديـوان البحتـري وقـد طبـع فـي دمشـق. وقـد فقـد كتـاب الأيـك والغصـون فـي مائـة مجلـد، وهـو دائـرة معـارف فـي العلـم والأدب؛

=

المفقـود (Le paradig perdu) وهـي ركـن مـن أركـان الشـعر الإنجليـزي وإحـدى روائـع الخيال البشري. ولد سنة 1608 وتوفى سنة 1674.

(1) قلت: فطاحل ومؤرخو الأدب الأوروبي – الأدب ونقاده – يقرون بما لا يدع مجالاً للشك، أن دانتي تأثر في هذا العمل بـ «رسالة الغفران» لأبي العلاء المعري الذي سبقه بـ 264 سنة، وأخذ الفكرة والمنهج. الشاعران تخيلا الشعراء في العالم الآخر وهم يستغفرون ربهم من ذنوبهم العظيمة. كما قام الشاعران بإخراج مسرحية الواقع التاريخي للشخصيات المهمة في مجتمعهم وثقافتهم في اطار متخيل متقن ومدهش، تماما كما ظهرت «رسالة الغفران» في العهد الاسلامي لفترة طويلة حين ظهرت الافكار المنقولة والمماثلة ك «الكوميديا الإلهية» لدانتي و«الفردوس المفقود» لملتون. الدليل الاقوى على نسخ دانتي لفكرة «رسالة الغفران» ظهر في القرن العشرين على يد مستشرق اسباني معاصر، عندما عثر على مخطوطين لترجمتين لقصة «الإسراء والمعراج»، خلص منها إلى نظرية تثبت أن دانتي قد بنى كوميدياه على أفكار وأصول إسلامية، من بينها «رسالة الغفران» وقصة «الاسراء والمعراج».

تركت كل من «رسالة الغفران» و«الكوميديا الالهية» على رغم صعوبة صياغتهما اللغوية وعدم سلاستهما في السرد، واسلوبهما المسجوع، بصماتهما، على ادب الرحلات إلى العالم الاخر، ومفهوم الفرد للجنة والنار والحياة الآخرى. الأدب العربي الحديث لازال عاجزا عن تفسير وشرح «رسالة الغفران» للمعري أو التمكن من تسهيل فهم اللغة التي كتبت الرسالة، وهذا دليل آخر على عبقرية المعري الذي ثقف نفسه بنفسه ولم يعترف بدور أبيه قط في تنشئته، علما بأنه كان يردد: هذا ما جناه أبي عليّ وما جنيت على أحد!! أثر «رسالة الغفران» بدا واضحا على أعمال شعراء عرب، فقد تأثرت بها قصيدة الزهاوي القصصية المطولة بعنوان «ثورة الجحيم»، ومطولة «شاطئ الأعراف» لمحمد عبدالمعطي الهمشري، و«بين النهايتين» لمحمد سعيد السحراوي... والأخيران من شعراء الجيل الثاني لحركة أبولو.

شعور الأديبين، المعري ودانتي، بالذنب بالشك في الدين والديانة، ربما يكون سببا لانجاز عمل أدبي عظيم يستغفران فيهما رب الكون من الذنوب. المعري ذهب إلى ابعد من ذلك باختياره آل بيت النبي محمد عليه افضل الصلاة والسلام، سندا للاستغفار عندما طلب العفو والمغفرة من فاطمة الزهراء رضي الله عنها والأخذ بنصح الإمام علي كرم الله وجهه. الأمر نفسه ينطبق على دانتي الذي التقى في الجنة أصحاب السيد المسيح عليه السلام، وشاهد من عذبوه في الجحيم. ربما العبرة الكبرى من قراءة النصين تكمن في ان الايمان بالله والجنة والنار مدعاة إلى طلب البشر من المولى تعالى المغفرة وتكفير الذنوب.

ومعجز أحمد، وهو شرح ديوان المتنبي؛ وذكرى حبيب، وهو شرح ديوان أبي تمام، وغير ذلك كثير.

نموذج من شعره

قال ينعي على الحكام استبداهم بالرعية وعبثهم بمصالحها:

مل المقام فكم أعاشر أمة ... أمرت بغير صلاحها أمراؤها

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها ... وغدوا مصالحها وهم أجراؤها

وقال في أحكام الحظ وأوهام الحياة:

تبارك أنهار البلاد سوانح ... بعذب وخصت بالملوحة زمزم!

هو الحظ، عير البيد ساف بأنفه ... خزامي وأنف العود بالذل يجزم

توهمت خيراً في الزمان وأهله ... وكان خيالاً لا يصح التوهم

فما النور نورا ولا الفجر جدول ... ولا الشمس دينار ولا البدر درهم

ومن قصيدة له في الرثاء:

صاح! هذى قبورنا تملأ الرحاب ... فأين القبور من عهد عاد؟

خفف الوطء ما أظن أديم الأرض ... إلا من هذه الأجساد

وقبيح بنا وإن بعد العهد ... هوان الآباء والأجداد

سر إن أسطعت في الهواء رويداً ... لا اختيالا على رفات العباد

رب لحد قد صار لحداً مراراً ... ضاحكاً من تزاحم الأضداد

فاسأل الفرقدين عمن أحسا ... من قبيل وآنسا من بلاد

كم أقاما على زوال نهار ... وأنارا لمدلج في سواد

تعب كلها الحياة فما أعجب ... إلا من راغب في ازدياد

إن حزناً في ساعة الموت أضعاف ... سرور في ساعة الميلاد

وقال ينعي على المتزهدين المرائين من أهل الدين:

رويدك قد غررت وأنت حر بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحا ويشربها على عمد مساء
يقول لكم غدوت بلا كساء وفي لذاتها رهن الكساء
إذا فعل الفتى ما عنه ينهى فمن جهتين لا جهة أساء

وقال:

يحسن مرأى بني آدم وكلهم في الذوق لا يعذب
ما فيهم بر ولا ناسك إلا إلى نفع له يجذب
أفضل من أفضلهم صخرة لا تظلم الناس ولا تكذب

وقال:

خف دنيا كما تخاف سربا صال ليث الشرى بظفر وناب
والصلال التي تخاف رداها شرها في الرؤوس والأذناب

وقال:

عجبي للطبيب يُلحد في الخالق من بعد درسه التشريحا
رُبَّ روح كطائر القفص المسجون ترجو بموتها التسريحا

الشعر والشعراء في الأندلس

أفلت صقر قريش من شرَك السفاح ونجا بنفسه وأهله إلى الأندلس. وكان الملك فيها يومئذ يضطرب بالخلاف بين المضرية واليمنية؛ والبلاد تنتظر من يلمها من شتات، ويحييها من موات، ويجمعها من فرقة؛ فكان عبد الرحمن الداخل هو الرجل الموعود والإمام المنتظر. فاستولى عليها سنة 138 هـ بمعونة اليمنية. ونشر علم بني أمية في قرطبة بعد ما طوته المسودة في دمشق. وتعاقب على عرشها من أولاده وحفدته تسعة عشر خليفة في أربعة وثمانين ومائتي عام، حتى أصابهم داء الأمم فتفرقوا وتمزقوا، وانحل ملكهم إلى دويلات صغيرة عرف أصحابها بملوك الطوائف، كبني جهور في قرطبة، وابن عباد في إشبيلية، واين الأفطس في بطليوس.

وكانت سياسة الأمويين في الغرب غير سياستهم في الشرق، فقد كانوا في دولتهم الأولى يترفعون عن خلاط الموالي، ويعنزون بعصبية الجنس، فأصبحوا في هذه الدولة مدنيين، يمدون إلى القوط أسباب الاتصال بهم، ويمهدون لهم سبل الاندماج فيهم، صنع بني العباس في أبناء الفرس. فكان من نتيجة هذا الارتباط وأثر هذا الاختلاط أن حدث في الأندلس ما حدث في العراق من امتزاج الجنسية السامية بالجنسية الآرية، ونضج العقلية العربية، واستعار النهضة الأدبية، وازدهار الأندلس بحضارة إسلامية مادتها من الشرق وبناتها [1] من العرب، لأن أوربا يومئذ كانت تخبط في دياجير الجهالة، وترسف في أغلال الأمية، فاقتبس الأسبان ثقافة العرب فاعتقدوا دينهم، وتكلموا لغتهم، وتعلموا أدبهم، وهجروا اللاتينية وآدابها حتى أنسوا، وحتى جأر بالشكوى من هذا

(1) أما حضارة الإسلام في بغداد فكانت من صنع الفرس والسريان والهنود، لأن العرب كانوا يومئذ وراث بداوة وجهالة، وهؤلاء كانوا وراث ملك وحضارة وفلسفة وعلم، فانتقل كل أولئك إلى الإسلام بانتقالهم إليه.

الحال كاهن [1] قرطبة ولكن القسيسين أنفسهم لم يستطيعوا الوقوف بنجوة من هذا السيل فجرفهم جرفاً حتى اضطرهم إلى نقل كتب الدين إلى اللغة العربية.

وكان الأمويون وعرب الأندلس لا ينفكون ملتفتين إلى الشرق موطن الجنس والدين واللغة والأدب والحضارة فيسيرون على ضيائه، ويستمدون من زعمائه وعلمائه، ويحذون في سياستهم وإدارتهم حذو العباسيين، فيشيدوا المدارس لجامعة، وأنشئوا المكاتب العامة، ونشطوا حركة التأليف، وأذكوا نهضة الأدب، ورفعوا مجد الفنون، وعقدوا مجالس المناظرة والمسامرة والغناء. بلغت الأندلس من ذلك كله الحظ الموفور في عهد عبد الرحمن الثاني (206 – 238 هـ) وبلغت أوج سلطانها وغاية عمرانها وتمام بنيانها في عصر أمير المؤمنين عبد الرحمن الثالث (300 – 350) وابنه الحكم، وهو عصرها الذهبي الذي بلغت فيه من السطوة والقوة والثروة والوحدة والحضارة والعمارة والفن والأدب ما كادت تضارع به بغداد، وما أدهشت به المؤرخ دوزى حتى قال: " إن عبد الرحمن الناصر أولى أن يكون من ملوك العصر الحديث لا من ملوك القرون الوسطى ". وهكذا كانت حضارة الإسلام تشع في بغداد وقرطبة في وقت واحد فتبدد دياجير الشرق وتكشف مجاهيل الغرب، ولكن تمام الشيء مبدأ نقصانه: فلك تكد خلافة الحكم ابن الناصر تنتهي حتى درب في خلافة بني مروان دبيب البلى والهرم، وآل سلطانها إلى ملوك الطوائف فاضطلعوا به قليلا ثم أوهن كواهلهم داء الانقسام وفساد النظام. وغاداهم المرابطون من البربر فقوضوا أركانهم، ونازعوا سلطانهم؛ ورواحهم الفرنج متكاتفين فاستلبوا الملك من أيديهم مدينة بعد مدينة، حتى تمت

---

(1) قال هذا الكاهن ما ملخصه عن كتاب تاريخ العرب في أسبانيا لدوزي ج 2 ص 103. إنا نحب أن نقرأ الشعر والقصص وندرس الدين والفلسفة في اللغة العربية فتتعلم لغة الألفاظ بليغة الأداء جميلة الإنشاد، ولا تكاد تجد فينا من يقرأ الكتب المقدسة باللغة اللاتينية، وشبابنا الأذكياء جميعا لا يعرفون غير لغة العرب وآدابهم. وكلما قرأوا كتبها ودرسوا أدبها أعجبوا بها، فإذا حدثتهم عن كتاب من الكتب اللاتينية سخروا منه وقالوا إن الفائدة منه لا تساوي التعب في قراءته. وهكذا نسي المسيحيون لغتهم، وجهلوا كتابتها وبلاغتها. وحذقوا اللسان العربي حتى ليكتبونه نثراً ونظماً بأسلوب أنيق، وتصوير دقيق، ويفرقون فيه العرب أحياناً.

الهزيمة وعم الجلاء بفرار أبي عبد الله محمد ابن علي من غرناطة سنة 898 هـ وكان ذلك آخر عهد العرب والعربية بالجزيرة.

ذلك مجمل من القول في حال العرب بالأندلس سقناه إليك تمهيداً لما سنلم به إلماماً من وصف شعره وذكر نفر من شعرائهم.

وليس من غرضنا أن نعرض هنا لدراسة الشعر الأندلسي فنفصله ونحلله، وإنما هي لمعة وجيزة تكشف عن مناهجه ومناحيه، وتبين تأثير البيئة والطبيعة فيه. فقد وجد الشعراء العرب في أوربا ما لم يجدوه في آسيا من الحياة المتنوعة، والجواء المتغيرة، والمناظر المختلفة، والأمطار المتصلة، والخمائل الجميلة، والأدواح الظليلة، والأنهار الروية، والسهول الغنية، والجبال المؤزرة بعميم النبت، والمروج المطرزة بألوان الزهر؛ فصفت أذهانهم، وسما وجدانهم، وعذب بيانهم، ووسعوا دائرة الأدب، وهذبوا الشعر فتأنقوا في ألفاظه، وتنوقوا في معانيه، ونوعوا في قوافيه، وتفننوا في خياله، ودبحوه تدبيج الزهر، وسلسلوه سلسلة النهر، وأكثروا من نظمه في البحور الخفيفة القصيرة، حتى ضاقت أوزان العروض عما تقتضيه رقة الحضارة ورقي الغناء. فاستحدثوا الموشح باللغة الفصحى، ثم تطور عند انحطاط الأدب واضمحلال أمر العرب إلى الزجل باللغة العامية.

وصرفوا الشعر في أغراض شتى كالمدح والغزل والرثاء والدعاء والزهد والتصوف والفلسفة والمراح والمجون وعالجوا سياسة الاجتماع، ونظموا حوادث التاريخ، وأبدعوا ما شاء الإبداع في الوصف: فوصفوا الأبنية والتماثيل والقصور والبرك والنوافير والنواعير والحدائق والمروج والأودية والأديرة والأنهار والأشجار والرياح ومجالس الطرب؛ وكل ذلك في حلاوة لفظ ورقة أسلوب ودقة صنعة. إلا أن شعرهم على الجملة جار مجرى الشعر الشرقي، فلم يتعد حدوده ولم يكسر قيوده إلا بمقدار ما ذكرناه لك من ابتداع الموشح وتنويع القافية؛ وذلك لاعتقادهم أنه هو الأصل يرجع إليه والقالب الذي يضرب عليه.

ولئن صح من بعض الوجوه ما يتقول به أدباء الفرنج من أن الشعر العربي تصنع في اللفظ، وتعمل في الشكل، وليس فيه خيال رائق، ولا شعور صادق [1] فلن يصح هذا القول بحال في شعراء الأندلس. فإنهم عبروا عن عواطفهم، وترجموا عن مشاعرهم، بلفظ جيد وأسلوب أنيق فطافوا [2] على قرائهم بأكواب من ذهب فيها ما تشتهيه الأنفس. وإنك لترى في وصفهم مناظر الطبيعة وتصويرهم وجوه الأرض مشابهة لأشعار الفرنج. ولقد أخذ الفرنسيون والأسبان عن عرب الأندلس غير العلم والموسيقى وفن العمارة، ضروباً شتى من الشعر، كالمدح والهجاء والغزل، كما أخذوا عنهم القافية، وكانوا من قبل يكتفون باتحاد الحروف الصوتية الأخيرة (assonance) غير ناظرين إلى ما بعدها [3].

ولو طال على الأندلسيين الأمد في الحضارة، وتعاقبت أطوار الرقي على اللغة وآدابها لأتوا بأبلغ مما جاء به روسو وهوجو ولامرتين وأضرابهم. ولكن

---

(1) على أن من منصفي كتاب الفرنج من نقض هذا الحكم كالأستاذ جول لومتر (1853 – 1914) (Jules Lemaitre) إذ يقول في مقدمته لكتاب حديثة الزهور لواصف باشا غالي " إن الشعر العربي على جملته أنقى شعر عرفه العالم يما حوى من العواطف الرقيقة؛ وهو أقرب الأشعار إلى معاني الرجولة والشرف والحياء الصحيح والإيمان القوي ".

(2) إشارة إلى من شبه معاني الشعر العربي في وحدتها وتنوع ألفاظها بشراب من نوع واحد يسقى بآنية مختلفة، فمنها الذهب والفضة والبلور والخزف.

(3) كان التروبادور (Les Troubadours) وهم شعراء جنوب فرنسا في القرون الوسطى، ينتقلون من قصر إلى قصر منتجعين الأمراء والوجهاء بالمديح، وكانت أشعارهم خلواً من القافية فاقتبسوها من عرب الأندلس بطبيعة الجوار والخلاط، كما اقتبسوا في النظم أنواع الغزل والمدح والهجاء، وفي النثر القصص والأمثال والملح. وإنما خفى ذلك الثر العربي في الأدب الفرنسي الحديث لأن الغلبة كانت لأهل الشمال وللغتهم أويل (Oil) ولشعرائهم التروفير (Les trouvered).

وقال لويس فياردو (Louis Viardot) في الجزء الثاني من كتاب تاريخ العرب والبربر في اسبانيا: " كان الشعر الفرنسي على مثال الشعر الأسباني المأخوذ عن الشعر العربي لا عن اليوناني ولا عن الروماني، لأنهم لم يقفوا على هذا ولا ذاك قبل القرن الرابع عشر حتى يقلدوه... ولقد أخذنا صناعة الشعر والقوافي عن العرب. وهذه الصناعة جاءتنا من الأندلس عن طريق مرسيليا وطولون مع التجار الأسبان الذين كانوا يفدون إليهما... ".

فاجأهم الانقسام، وداهمهم الخصام، فانشقت عصاهم، وانفصمت عراهم، ونضبت قرائحهم وأمحلت عقولهم، وذهبوا كأمس الدائر، سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

نماذج من الشعر الأندلسي

قال أبو الفضل ابن شرف القيرواني:

مطل الليل بوعدِ الفَلق ... وتشَكى النجمُ طولَ الأرق
ضربت ريح الصبا مسك الدجى ... فاستفاد الروض طيب العبق
وألاح الفجر خد خجلا ... جال من رشح الندى في عرق
جاوز الليل إلى أنجمه ... فتساقطن سقوط الورق
واستفاض الصبح فيها فيضه ... أيقن النجم لها بالغرق
فانجلى ذاك السنا عن حلك ... وانمحى ذاك الدجى عن شفق
يأبى بعد الكرى طيف سرى ... طارقا عن سكن لم يطرق
زارني والليل ناع سدفه ... وهو مطلوب بباقي الرمق
ودموع الطل تمريها الصبا ... وجفون الروض غرقى الحدق
فتأبى في إزار ثابت ... وتتنى في وشاح قلق
وتجلى وجهه عن شعره ... فتجلى فلق عن غسق
نهب الصبح دجى ليلته ... فحبا الخد ببعض الشفق
سلبت عيناه حدى سيفه ... وتجلى خده بالرونق

وقال ابن حمديس الصقلي يصف ديراً وراهبة تبيع الخمر:

وراهبة أغلقت ديرها ... فكنا مع الليل زوارها
هدانا إليها شذى قهوة ... تذيع لأنفك أسرارها
طرحت بميزانها درهمي ... فأجرت من لدن دينارها
تفرس في شمسه طيبها ... مجيد الفراسة فاختارها
فتى دارس الخمر حتى درع ... عصير الخمور وأعصارها

يعَـدُّ لمـا شـئت مـن قهـوة ... سـنيها ويعـرف خمارهـا
وعـدنا إلـى هالـك أطلعـت ... علـى قضـب البـان أقمارهـا
يـرى ملـك اللهـو فيهـا الهمـوم ... تثـور فيقتـل ثوارهـا
وقـد سـكنت حركـات الأسـى ... قيـان تحـرك أوتارهـا
فهـذى تعـانق لـي عودهـا ... وتلـك تقبـل مزمارهـا
وراقصـة لقطـت رجلهـا ... حـاب يـد نقـرت طارهـا
وقضـب مـن الشـمع مصـغرة ... تريـك مـن النـار نوارهـا
كـأن لهـا عمـداً صـفقت ... وقـد وزن العـدل أقطارهـا

إلى أن قال:

ذكـرت صـقلية والأسـى ... يهـيج للـنفس تـذكارها
ومنزلـة للتصـابي خلـت ... وكـان بنـو الظـرف عمارهـا
فـإن كنـت أخرجـت مـن جنـة ... فـإني أحـدث أخبارهـا
ولـولا ملوحـة مـاء البكـاء ... حسـبت دمـوعي أنهارهـا

وقال ابن هانئ يصف أكولا:

يا ليت شعري، إذا أومى إلى فمه ... أحلقـه لهـوات أم ميـادين؟
كأنها – وخبيث الزاد يضرمها - ... جهـنم، قـذفت فيهـا الشـياطين
تبـارك الله مـا أمضـى أسـنته ... كأنمـا كـل فـك منـه طـاحون
كـأن بيـت سـلاح فيـه مختـزن ... ممـا أعدتـه للرسـل الفـراعين
أيـن الأسـنة أم أيـن الصـوارم أم ... أيـن الخنـاجر أم أيـن السـكاكين
كأنمـا الحمـل المشـوي فـي يـده ... ذو النون في الماء لما عضه النون
لـف الجـداء بأيـديها وأرجلهـا ... كأنمـا افترسـتهن السـراجين

وغـادر البـك مـن مثنـى وواحـدة كأنمـــا اختطفـــتهن الشـــواهين
يخفـض الـرز مـن قـرن إلـى قـدم وللبلاعـــيم تطريـــب وتلحـــين
كأنمـا كـل ركـــن مـــن طبائعـــه نـار، وفـي كـل عضـو منـه كـانون!
كأنما في الحشا من حمل معدته قرنفـــل وجـــراريش وكمـــون
قومـوا بنـا فلقـد ريعـت خواطرنـا وجاذبتنـــا أعنتهـــا البـــراذين
نصحتكم، فخذوا من شدقه وزراً أولا، فـأنتم سـوبق فيـه مطحـون

وقـال المعتمـد ابـن عبـاد صـاحب إشـبيلية وقـد دخـل عليـه فـي سـجنه بناتـه يـوم عيد في أطمار بالية بعد أن سلمه ابن تاشفين ملكه وسجنه بأغمات:

فيما مضلا كنت بالأعياد مسرورا فسـاءك العيـد فـي أغمـات مأسـورا
تـرى بناتـك فـي الأطمـار جائعـة يغـزلن للنـاس مـا يملكـن قطميـرا
يطـأن فـي الطـين والأقـدام حافيـة كأنهـا لـم تطـأ مسـكاً وكـافورا
أفطرت في العيد لا عادت إساءته فكـــان فطـــرك للأكبـــاد تفطيـــرا
قـد كـان دهـرك إن تـأمره ممتـثلا فـــردك الـــدهر منيهـــا ومـــأمورا
مـن بـات بعـدك فـي ملـك يسـر بـه فإنمـــا بـــات بـــالأحلام مغـــرورا

وقال ابن دراج القسطلي من قصيدة يصف وداعه لزوجه وولده الصغير:

ولمـا تـدانت للـوداع وقـد هفـا بصـــبري منـــه أنـــة وزفيـــر
تناشـدني عهـد المـودة والهـوى وفـي المهـد مبغـوم النـداء صـغير
عَيـيٌّ بمرجـوع الجـواب، ولفظـه بموقـــع أهـــواء النفـــوس خبيـــر
تبـوأ ممنـوع القلـوب ومهـدت لـــه أذرع محفوفـــة ونحـــور
وطار جناح البين بي وهفت بها جـوانح مـن ذعـر الفـراق تطيـر
ولـو شـاهدتني والهـواجر تلتظـي علـي ورقـراق الشـراب يمـور
أسـلط حـر الهـاجرات إذا سـطا علـى حـر وجهـي والأصـيل هجيـر

واستنشق النكباء وهي لوافح وأستوطئ الرمضاء وهي تفور
وللموت في عين الجبان تلون وللذع في سمع الجريء صفير
لبان لها أني من البين جازع وأني على مض الخطوب صبور

وقال الوزير ابن زيدون وهو سجين:

ما على ظني باس يجرح الدهر وياسو
ربما أشرف بالمرء على الآمال ياس
ولقد ينجيك إغفال ويريدك احتراس
والمحاذير سهام والمقادير قياس
ولكم أجدي قعود ولكم أكدي التماس!
وكذا الحكم: إذا ما عز ناس ذل ناس
وبنو الأيام أخياف سراة وخساس
نلبس الدنيا، ولكن متعة ذاك اللباس
يا أبا حفص وما سا واك في فهم إياس
من سنا رأيك لي في (م) غسق الخطب اقتباس
لا يكن عهدك وَرْداً إن عهدي لك آس
وأدر ذكرى كأساً ما امتطت كفك كاس
واغتنم صفو الليالي إنما العيش اختلاس
ما ترى في معشر حالوا عن العهد وخاسوا؟
أذؤب هامت بلحمي بانتهابٌ وانتهاس
كلهم يسأل عن حالي ، وللذئب اعتساس
إن قسا الدهر فللماء من الصخر انبجاس

ولـــئن أمســـيت محبوســـا فللغيـــــث احتبـــــاس
ويفـــت المســـك فـــي التـــرب فيوطـــــأ ويـــــداس

ومن أجود موشحاتهم قول ابن بقي:

خـذ حـديث الشـوق عـن نفسـي وعـــن الـــدمع الـــذي همعـــا

مـــا تـــرى شـــوقي قـــد وقـــدا
وهمـــــا دمعـــــي واطـــــردا
واغتـــدى قلبـــي عليـــك ســـدى!

آه مـــن مـــاء ومـــن قـــبس بـــين طرفـــي والحشـــا جُمعـــا!

* * * * *

بـــــأبي ريـــــم إذا ســـــفرا
أطلعـــــــت أزراره قمـــــــراً
فاحـــــذروه كلمـــــا نظـــــرا

فبالحـــاظ الجفـــوق قِســـى أنـــا منهـــا بعـــض مـــن صُـــرِعا

وقال بعضهم:

مـــــــا للموَلَّـــــــه مـــــن ســـــكره لا يفيـــــق
يـــــا لـــــه ســـــكرانا!
مـــــن غيـــــر خمـــــر مـــــا للكئيـــــب المشـــــوق
ينـــــــدب الأوطانـــــــا
هـــــــل تســـــــتعاد أيامنـــــــا بـــــــالخليج
وليالينـــــــــــــــــا

أو يســـــــــــــــتفاد، مـــــن النســـــيم الأريـــــج
مســـــــــك دارينـــــــــا
واد يكـــــــــــــــاد، حســـــن المكـــــان البهـــــيج
أن يحيينـــــــــــــــا
ونهـــــــــر أظلـــــــــه دوح عليـــــــــه أنيـــــــــق
مـــــــــورق فينـــــــــان
والمســـــــــاء يجـــــــــري وعـــــــــائم وغريـــــــــق
مـــــــن جَنَـــــى الريحـــــان

ومن موشح ابن سهل الإسرائيلي:

هل درى ظبى الحمى أن قد حمى قلـبَ صـب حلـه عـن مكـنس
فهـو فـي حـر وخفـق مثـل مـا لعبـت ريـح الصـبا بـالقبس

* * * * *

يـا بـدوراً أطلعـت يـوم النـوى غـرراً تسـلك فـي نهـج الغـرر
مـا لقلبي في الهوى ذنب سوى مـنكم الحسـن ومـن عينـي النظـر
أجتنـي اللـذات مكلـومَ الجـوى والتـذاذي مـن حبيبـي بـالفكر
كلمـا أشـكوه وَجـداً بسـما كـالربى بالعـارض المنـبجس
إذ يقـيم القطـر فيـه مأتمـا وهـي مـن بهجتهـا فـي عـرس

* * * * *

غالـب لـي غالـب بـالتؤدة بـأبي أفديـه مـن حـاف رقيـق
مـا رأينـا مثـل ثغـر نضـده أقحوانـاً عصـرت منـه رحيـق

أخـــذت عينـــاه منـــه العربـــدة وفـــؤادي ســـكره مـــا إن يفيـــق
فـــاحم الجمـــة معســـول اللمـــى أكحـــل اللحـــظ شـــهي اللعـــس
وجهـــه يتلـــو الضـــحى مبتســـما وهـــو مـــن إعراضـــه فـــي عـــبس

شعراء الأندلس

ابن عبد ربه

(246 - 328 هـ)

نشأته وحياته

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأموي بالولاء، لأن جده كان مولى لهشام ابن عبد الرحمن الداخل ثاني خلفاء الأمويين بالأندلس. ولد هذا الكاتب الشاعر بقرطبة ونشأتها، ثم تخرج على علماء الأندلس وأدبائها وامتاز بسعة الاطلاع في العلم والرواية، وطول الباع في الشعر والكتابة. قال ياقوت في معجمه: " وكان لأبي عمر بالعلم جلالة وبالأدب رياسة وشهرة مع ديانة وصيانة، واتفقت له أيام وولايات للعلم فيها نفاق، فساد بعد الخمول، وأثرى بعد الفقر، وأشير إليه بالتفضيل، إلا أنه غلب عليه الشعر " ثم أصيب في أعقاب عمره بالفالج. وتوفى سنة 328 هجرية.

شعره

أكثر شعر ابن عبد ربه وأجمله في الوصف والغزل. وهو أشبه بشعر ابن زيدون في الجمع بين روعة الشرقيين وجزالتهم، ورقة الغربيين وسلاستهم. وهو أكثر ترديداً لأخبار المشارقة وأصبح تقليداً لأشعارهم. وقد اتصلت شهرته بهؤلاء فرووا شعره، ورددوا ذكره، وشهدوا له بالتقدم والإجادة. روى ابن الخطيب أن الوليد الأندلسي لما حج عرج في منصَرَفه على مصر، فلقي بها أبا الطيب المتنبي في جامع عمرو ابن العاص، فأفاضا في الحديث مليا، ثم قال المتنبي: ألا تنشدني لمليح الأندلس؟ يعني ابن عبد ربه. فأنشده الوليد شيئاً من شعره، فصفق له واستعاده ثم قال: " يا ابن عبد ربه لقد تأتيك العراق حبوا! " وكفى بشهادة المتنبي دليلا على فضل الرجل وعلو كعبه. وابن عبد ربه من الشعراء المكثرين. فقد رأى الحميدي من شعره عشرين جزءاً ونيفاً من جملة ما جمع للحكم ابن عبد الرحمن الناصر أكثرها بخطه. وقد زين كتابه العقد الفريد بكثير منه في كل معنى. وقال في مقدمته: " وحليت كل كتاب منها

بشواهد من الشعر تجانس الأخبار في معانيها، وتوفقها في مذاهبها وقرنت منها غرائب من شعري ليعلم الناظر في كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصيته، وبلدنا على انقطاعه، حظاً من المنظوم والمنثور ".

وهو من السابقين إلى اختراع الموشحات، وله طبع في الشعر القصصي وهو قليل في العربية. من ذلك أرجوزته في تاريخ عبد الرحمن الناصر صاحب الأندلس في عصره، ولكنها إلى الشعر التعليمي (Didactique) أقرب منها إلى الشعر القصصي (Epique) لجفافها وضعف خيالها وبعدها عن قواعد الملحمة، وهي منشورة في الجزء الثاني من العقد الفريد.

ولما تناهت به السن وأرعشه الكبر، أقلع عن صبوته، وأخلص لله في توبته، ونظم أشعاراً كثيرة سماها بالممحصات لأنه نقض كل قطعة قالها في الغزل واللهو، بقطعة من بحرها ورويها في الموعظة والزهد ولم يكتف ابن عبد ربه بنبوغه في الشعر وتفوقه في النثر، فأراد أن يدل على براعته في التأليف أيضاً، فصنف كتاباً في الأدب سماه العقد الفريد.

العقد الفريد

وهو كتاب من أمهات كتب الأدب، جامع لتشتيت الفوائد ومنثور المسائل في الأخبار والأنساب والأمثال والشعر والعروض حتى الطب والموسيقى. وقد استوعب خلاصة ما دون من كتب الأصمعي وأبي عبيدة والجاحظ وابن قتيبة وغيرهم. ولم يقتصر على المأثور عن العرب بل وشى كتابه بما ترجم عن اليونان والفرس والهنود من ضروب الحكمة والموعظة والملح. وقد تأنق في تبويبه وتفنن في ترتيبه، فقسمه إلى خمسة وعشرين كتاباً في موضوعات شتى بدأ كلا منها بمقدمة بليغة من إنشائه تبين الغرض منه؛ وسمي كل كتاب بجوهرة من جواهر العقد كاللؤلؤة والفريدة والزبرجدة والجمانة والمرجانة والياقوتة والجوهرة الخ.

ومن الغريب أن المؤلف وهو أندلسي لم يشر إلى الأندلس ولا إلى أهلها بكلمة، اللهم إلا إلى نفسه! حتى إن الصاحب ابن عبدا لما سمع بهذا الكتاب حرص حتى حصل عليه. فلما تصفحه قال: " هذه بضاعتنا ردت إلينا. ظننت أن

هـذا الكتـاب يشـتمل علـى شـيء مـن أخبـار بلادهـم، فـإذا بـه يشـتمل علـى أخبـار بلادنـا. لا حاجـة لنـا بـه، ثـم رده ". والكتـاب فـي ثلاثـة مجلـدات تزيـد صـفحاتها على ألف صفحة وقد طبع بالقاهرة أخيراً في خمسة مجلدات.

نموذج من شعره

قال في الغزل:

يـا لؤلـؤا يسـبي العقـول أنيـا ... ورشـاً بتقطيـع القلـوب رقيقـاً
مـا إن رأيـت ولا سـمعت بمثلـه ... دراً يعـود مـن الحيـاء عقيقـا
وإذا نظـرت إلـى محاسـن وجهـه ... أبصـرت وجهـك فـي سـناه غريقـا
يـا مـن تقطـع خصـره مـن رقـة ... مـا بـال قلبـك لا يكـون رقيقـا؟

وقال في موقف الوداع:

ودعتنـي بـزورة واعتنـاق ... ثـم نـادت متـى يكـون التلاقـي!
وبـدت لـي فأشـرق الصـبح منهـا ... بـين تلـك الجيـوب والأطـواق
يـا سـقيم الجفـون مـن غيـر سـقم ... بـين عينيـك مصـرع العشـاق
إن يـوم الفـراق أفظـع يـوم ... ليتنـي مـت قبـل يـوم الفـراق!

وقال في وصف رمح وسيف:

بكـل ردينـي كـأن سـنانه ... شـهاب بـدا فـي ظلمـة الليـل سـاطع
تقاصـرت الآجـال فـي طـول متنـه ... وعـادت بـه الآمـال وهـي فجـائع
وذي شـطب تقضـي المنايا لحكمه ... ولـيس لمـا تقضـي المنيـة دافـع
يسـلل أرواح الكمـاة انسـلاله ... ويرتـاع منـه المـوت والمـوت رائـع

وآخر شعر قاله قوله:

بليـت وأبلتنـي الليـالي بكَرِّهـا ... وصـرفان للأيـام معتـوران
ومـالي لا أبـالي لسـبعين حجـة ... وعشـر أتـت مـن بعـدها سـنتان
ولسـت أبـالي مـن تبـاريح علتـي ... إذا كـان عقلـي باقيـا ولسـاني

ابن هانئ الأندلسي

(326 - 362 هـ)

نشأته وحياته

ولد أبو القاسم محمد بن هانئ الأزدي الأندلسي بإشبيلية في زهر العهد الأموي. وفي أوج عصره الذهبي، وفي حكم الملك الناصر. وكانت إشبيلية إذ ذاك أخصب بلاد الأندلس علما وأدبا، فنشأ بها ودرس الأدب العربي على النمط المألوف. يومئذ من السماع والحفظ والإنشاد والمحاكاة، وأبوه هانئ يعضده ويرشده لأنه هو نفسه أديب يعيش على الأدب ويتكسب بالشعر. واستهوى شاعرنا ما عليه طائفة الشعراء من النعمة والثراء فسلك سبيلهم وتبع دليلهم، حتى اتصل بصاحب إشبيلية فنال حظوته وكسب محبته. وكانت ثمار الحضارة الأندلسية من السرف والترف واللهو قد بدت في ذلك الحين، فقطفت ابن هانئ منها باليدين ولم يجد له رادعاً من خلق ولا وازعاً من دين. وأخذ بشيء من مذاهب الفلاسفة والأندلسيون على نقيض الشرقيين يمقتون البدعة وينصرون السنة وينكرون الفلسفة ويصدون عن البحث في الدين، فتألب أهل إشبيلية عليه، وكادوا يصلون بالأذى إليه. واتهموا الملك بمشايعته على رأيه، فأشار عليه أن يغيب ريثما تهدأ ثائرة القوم وينسونه. فرحل إلى عدوة المغرب وعمره ست وعشرون سنة، فلقي القائد جوهراً فاتح مصر لمعز فمدحه. وأخصب زرع آماله فوصله الجد الميمون بالمعز لدين الله العبيدي فاصطفاه إليه وأغدق إحسانه عليه. ولما خرج المعز يريد مصر بعد أن فتحها جوهر وراض له الأمر فيها شيعه ابن هانئ وتخلف عنه ليأخذ عياله وماله ثم يلحق به إلى مصر. فلما كان طريقه إليها عرج على برقة ونزل في ضيافة رجل من أهلها، فأقام عنده يقصف ويلهو، حتى أمعن ذات يوم في الشراب فسكر سكرة أفضت به إلى سكرة الموت. فقيل: إن نداماه من أهل ضيافته عربدوا عليه وقتلوه، أو إنه خرج من الدار وهو سكران طافح فصرعته الخمر في الطريق فمات، وعمره ست وثلاثون سنة. فلما بلغ المعز وفاته أسف عليه وقال: " هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء الشرق فلم يُقدَّر لنا ذلك ".

أخلاقه

كان ابن هانئ ماجناً خليع العذار صاحب لهو وخمر. وكان ذكي الفؤاد فكه الأخلاق جم الأدب صريح القول والفعل لا يبالي أين يقع ذلك من الناس ومصداق تلك الصفات فيه مجاهرته بآراء تنكرها بيئته، وترفضها طبقته ومبالغته في شعره إلى حد الكفر، والشاعر دون الفيلسوف أحرص الناس على رضا الناس. ناهيك بميتته الداعرة التي قل أن ماتها رجل.

شعره

ابن هانئ على رأي الجمهور أمير شعراء الأندلس غير مدافع. وفي هذا الرأي على إطلاقه إجحاف بأمثال ابن زيدون. على أن شعره من الطبقة العالية التي تجمع بين سلاسة التفكير، وسلامة التعبير، ومعالجة كثير من مسائل الحياة وأحوال الاجتماع وخوارج النفس. وقد اطلع[1] على شعر المتنبي وهو معاصره فأعجب بأسلوبه ومذهبه وسار على مناهجه وانتم بهديه: فهو مثله يذهب في الشعر مذهب الفلاسفة، وينثر في ثنايا مدحه الحكم والأمثال، ويتخذ من حياته

---

(1) يؤيد ذلك قصيدته الرائية التي كتبها إلى رجل زعم أن لقي المتني وقرأ عليه شعره فاستعاره ابن هانئ الديوان فأعاره إياه ثم أساء معاملته في تقاضيه:

ومطلعها:

تنبّأَ المتنـي فـيكم عصـراً ... ولـو أرادكـم فـي شـعره كفَـرا

ومنها:

تهـتم عليـه بمـرآه وخلـتكم ... لـم تـدركوا منـه لا عينـاً ولا أثـرا

ومنها:

أريتمـوني مثـالاً مـن روايـتكم ... كـأعجمي أتـى لا يفصـح الخبـرا

ومنها:

فلـو رأى مـا دهـاني فـي كتـابكم ... ومـا دهـى شـعره فـيكم لمـا شـعرا

ومنها:

أعرتمـوني نفيسـاً منـه فـي أدم ... فمـن لكـم أن تعـاروا البحـث وانظـرا

الخاصة مورداً لشعره، ويكثر من ذكر الحرب والقوة والغلب، ويجيد وصف ما يراه ويسمعه إجادة نادرة، ولذلك سموه متنبي الغرب على عادة المغاربة من حب التشبه بفحول المشارقة. ولكن بين الرجلين من التفاوت والبعد ما بين الوجه والبدر، والعزيمة والدهر، والكرم والبحر، في هذه التشابيه المعروفة. فشتان بين ما يصدر عن طبع وبين ما يصدر عن تقليد. وكأن هذه الموازنة أثارت سخط أبي العلاء، وعصبيته للمتنبي شديدة كما تعرف، فقال في ابن هانئ: " ما أبه إلا برحا تطحن قروناً لأجل القعقعة التي في ألفاظه " ومن يدري؟ فلو أن الله نسأ في أجل ابن هانئ فلم تأخذه المنون عبطة لأحكمته السن وصقلت شعره التجارب وكان للتاريخ فيه رأي آخر.

أما الأغراض التي قال فيها فالمدح وهو معظم شعره، والغزل ولا يقوله إلا ابتداء لقصيدة أو ابتغاء لتقليد؛ والرثاء والوصف وهو فيهما مقل مجيد. وقد شغله ما شغل المتنبي عن الطبيعة وأسرارها ومناظرها فلم يكن لها في شعره غير حظ ضئيل.

نموذج من شعره

قال من قصيدة في الرثاء وهي من أجود شعره:

إنا وفي آمال أنفسنا ... طول وفي أعمارنا قِصَرُ
لنرى بأعيننا مصارعنا ... لو كانت الألباب تعتبر
مما دهانا أن حاضرنا ... أجفاننا والغائب الفكر
وإذا تدبرنا جوارحنا ... فأكلهن العين والنظر
لو كان للألباب ممتحن ... ما عد منها السمع والبصر
أي الحياة ألذ عيشتها ... من بعد علمي أنني بشر
خرست لعمر الله ألسننا ... لما تكلم فوقنا القدر

ومنها:

وإذا صبحت العيش أوله ... صفواً، فهين بعده الكدر

وإذا انتهيت إلى مدى أمل ... دركا، فيوم واحد عمر
ولخير عيش أنت لابسه ... عيش جنى ثمراته الكبر
ولكل حلبة سابق أمد ... ولكل نهلة وارد صدر
وحدود تعمير المعمر أن ... يسمو صعوداً ثم ينحدر
والسيف يبلى وهو صاعقة ... وتنال منه الهام والقصر
والمرء كالظل المديد ضحى ... والفيء يحسره فينحسر

ويقول في ختامها:

غرض ترامي في الخطوب، فذا ... قوس، وذا سهم، وذا وتر
فجزعت حتى ليس بي جزع ... وحذرت، حتى ليس بي حذر

وقال في الغزل:

أمسحوا عن ناظري كحل السهاد ... وانفضوا عن مضجعي شوك القتاد
أو خذوا مني ما أعطيتم ... لا أحب الجسم مسلوب الفؤاد
هل تجيرون محباً من هوى؟ ... أو تفكون أسيراً من صفاد؟
أسلوا منكم من هجركم ... قلما يسلو عن الماء الصوادي!
إنما كانت خطوب قيضت ... فعدتنا عنكم إحدى العوادي
فعلى الأيام من بعدكم ... ما على الظلماء من لبس الحداد
لا مزار منكم يدنو سوى ... أن أرى أعلام هضب أو نجاد
قل تنويل خيال منكم ... يطبي بين جفون ومهاد
لم يزدنا القرب إلا هجرة ... فرضينا بالتنائي والبعاد
وإذا شاء زمان رابنا ... برقيب أو حسود أو معادي

ومن قصيدة له يمدح جوهراً ويصف جيشه وهو ذاهب إلى فتح مصر:

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع ... وقد راعني يوم من الحشر أورع
غداة كأن الأفق سد بمثله ... فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم أدر إذا سلمت كيف أشيع ... ولم أدر إذ شيعت كيف أودع
وكيف أخوض الجيش والجيش لجة ... وإني بمن قاد الجيوش لمولع
فلا عسكر من قبل جوهر ... تخب المطايا فيه عشراً وتوضع

وقال في المدح:

أبني العوالي السمهرية والسيوف ... المشرفية والعديد الأكثر
من منكم الملك المطاع كأنه ... تحت السوابغ تبع في حمير
القائد الخيل العتاق شوازياً ... خزراً إلى لحظ السنان الأخزر
شعث النواصي حشرة آذانها ... قب الأياطل، داميات الأنسر
تنبو سنابكهن عن عفر الثرى ... فيطأن في خد العزيز الأصعر
جيش تقدمه الليوث وفوقه ... كالغيل من قصب الوشيج الأسمر
ويقوده الليث الغضنفر معلماً ... في كل شنن اللبدتين غضنفر
في فتية صدأ الدروع عبيرهم ... وخلوقهم علق النجيع الأحمر
لا يأكل السرحان شلو طعينهم ... مما عليه من القنا المتكسر
قوم يبيت على الحشايا غيرهم ... ومبنيهم فوق الجياد الضمر
وتظل تسبح في الدماء قبابهم ... فكأنهن سفائن في أبحر
فحياضهم من كل مهجة خالع ... وخيامهم من كل لبدة قسور
حي من الأعراب إلا أنهم ... يردون ماء الأمن غير مكدر

وقوله في وصف الخيل:

وصواهل، لا الهضب يوم مغارها ... هضب، ولا البيد الحزون حزون

عرفــت بســاعة ســبقها، لا أنهــا علقــت بهــا يــوم الرهــان عيــون
وأجــل علــم البــرق عنهــا أنهــا مــرت بجانحتيــه وهــي ظنــون

ابن زيدون

(394 - 463 هـ)

نشأته وحياته

ولد أبو الوليد أحمد ابن عبد الله ابن زيدون بقرطبة سنة 394. وكان أبوه من وجوه الفقهاء وعيون الأدباء، فدرس عليه وعلى غيره الأدب والعلوم. ورزق في الإنشاء قريحة طيعة وطبعاً سليما. وسمت به كفايته ومكانته إلى أن وزر لأبي الحزم ابن جهور أحد ملوك الطوائف بالأندلس، فاشتهر أمره وارتفع قدره. وألقى إليه مقاليد الأمور فدبرها وساسها بحذق وكياسة: وكثيراً ما سفر بين مولاه وملوك الأندلس فأحسن سفارة وفض المشكل. ثم دبت بينهما عقارب السعاية، فنقم عليه ابن جهور وسجنه، ولم يشفع له سالف خدمته ولا سابق حرمته. فكتب إليه رسالة فريدة يستمطر بها رحمته، ويستدفع نقمته، فلم يلن لها ذلك القلب الجامد. ففر من سجنه واختفى بقرطبة حتى استشفع بأبي الوليد ابن جهور إلى أبيه فشفعه. وظل في حماية هذا الأمير حتى آل الملك إليه بعد أبيه فاستصحبه وقربه. ولكن صلاته السياسية بصاحب مالقة أحفظت عليه ابن جهور فنفاه. فلجأ إلى المعتضد عباد صاحب إشبيلية سنة 441 فاستخلصه إليه، وعول في أموره عليه. ثم وزر لابنه المعتمد وقضى في إشبيلية بقية عمره.

فأنت ترى من هذا المجمل أن حياة ابن زيدون العامة كانت مضطربة شاقة، ولم تكن حياته الخاصة بأقل منها اضطراباً ولا مشقة. فقد ابتلى وهو في قرطبة بحب ولادة بنت المستكفي أحد خلفاء بني أمية، وكانت شهيرة بالجمال والأدب شاعرة، سافرة، تساجل الشعراء وتجادل العلماء وكانت دارها نادياً من أندية قرطبة يغشاه الأمراء والوزراء والأدباء والقادة، وفي هؤلاء ابن زيدون، وكانت فيه خفة روح وحسن دعابة وبراعة أدب، فسبق المتنافسين إلى قلب ولادة فاحتله. وبادلته هي هذا الحب، فأذكى هذا الفوز نار الحسد في قلوب منافسيه ومزاحميه، فسعوا في إفساد ذات بينهما. واشتهر منهم الوزير أبو عامر ابن عبدوس وهو عظيم الحول والطول، فتزلف إلى ولادة في ساعة من

ساعات مللها من ابن زيدون فظفر برضاها: ثم عاد الحب إلى مجراه الأول فرجعت إلى ابن زيدون، فكتب إلى ابن عبدوس رسالة هزلية ضافية الذيل عن لسان ولادة أشبعه فيها تقريعاً وسخرية، وضمنها كثيراً من الملح في الأدب والتاريخ.

شعره

شعر ابن زيدون هو الصورة الصحيحة لشعر الأندلس، لانبجاسه من أعماق فؤاده، وانبعاثه من طبيعة بلاده. فلم يجر جريان ابن هانئ وراء شعراء المشرق يحاكيهم ويحتذيهم. لأنه لم يتخذ الشعر وسيلة من وسائل الرزق، ولا سبيلاً من سبل الشهرة، وإنما كان يشعر لنفسه، ويعبر عن نزوات حسه. وهو آخر شعراء بني مخزوم وأول معاصريه رقة ودقة. تقرأ في شعره أجود ما خصت به الطبيعة الأندلسيين من وصف المناظر، وشرح العواطف، وسمو الخيال، وصفاء الديباجة. وقد ظهر أحياناً على فخره ومدحه علائم الضعف، إلا أنك لا تجد ذلك إذا تغزل أو تشوق أو استعطف، فإن طبعه في هذه الأغراض فياض، وقلمه لشرحها مجيد. وسبب ذلك ما قاساه من ظلم ابن جهور له. وما عاناه من نفور ولادة منه وبعدها عنه.

وقد تضلع ابن زيدون من أشعار العرب وأساليبهم في الكتابة والخطاب حتى قيل أنه أصيب في بعض حرمه فقعد للعزاء عنها، وأقبل الناس على اختلاف طبقاتهم يعزونه، فما أجاب أحداً بما أجاب به غيره لسعة ميدانية وحضور جنانه، وإنك لتجد أثر هذا الاطلاع بادياً فيما يضمنه نثره وشعره من الأمثال والتشابيه والملح.

نثره

لابن زيدون نثر أنيق الوشي، دقيق النسج، قليل التكلف والسجع، كثير الازدواج والإطناب، شديد الشبه بطريقة الجاحظ ولاسيما في التنويع بحروف الجر. وله من طريقة ابن العميد تضمين الأمثال والملح، والتمثل بالشعر في غضون النثر. ومن أجود آثاره رسالتان جدية وهزلية، بعث بالأولى إلى ابن جهور يستعطفه بها وهو سجين، وبالأخرى إلى ابن عبدوس عن لسان ولادة،

وهي التي سبق ذكرها. وقد حرص الأدباء على حفظهما وعُنِيَ العلماء بشرحهما.

نموذج من كلامه

قال مخاطباً بني جهور:

بني جهور أحرقتم بجفائكم فؤادي فما بال المدائح تعبق
نعدوني كالعنبير الورد إنما تفوح لكم أنفاسه وهو يحرق

وقال يتشوق إلى ولادة وهي بقرطبة وهو بإشبيلية:

أضحى التنائي بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
يكاد لبعدكم تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الأسى لولا تأسينا
حالت لبعدكم أيامنا فغدت سوداً وكانت بكم بيضاً لياليا
ليسق عهدكم عهد السرور فما كنتم لأرواحنا إلا رياحينا
مَنْ مبلغُ الملبسِينا، بانتزاحِهمُ حُزْناً، معَ الدهرِ لا يبلى ويُبْلينَا
أن الزمان الذي ما زال يضحكنا أنساً بقربكم قد عاد يبكينا
غيظ العدى من تساقينا الهوى فدعوا بأن نغص فقال الدهر آمينا
فانحل ما كان معقوداً بأنفسنا وأنبت ما كان موصولا بأيدينا
وقد تكون وما يخشى تفرقنا فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا إن طال ما غير النأي المحبينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
يا ساري البرق غاد القصر فاسق به من كان صرف الهوى والود يسقينا
ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا من لو على البعد حيا كان يحيينا
يا روضة طالما أجنت لواحظنا ورداً جناه الصبا غضاً ونسرينا

ويـــا حيـــاة تملينـــا بزهرتهـــا منـــي ضـــروباً ولـــذات أفانينـــا
لســـنا نســـميك إجـــلالاً وتكرمـــة فقـــدرك المعتلـــى عـــن ذاك يغنينـــا
كأننـــا لـــم بـــت والوصـــل ثالثنـــا والسعد قط غض من أجفان واشينا
ســران فــي خــاطر الظلمــاء يكتمنــا حتــى يكــان لســان الصــبح يفشــينا
يــا جنــة الخلــد أبــد لنــا بسلســلها والكـــوثر العـــذب زقومـــاً وغثلينـــا
إنــا قرأنــا الأســى يــوم النــوى ســوراً مكتوبـــة وأخـــذنا الصـــبر تلقينـــاً

وقال يودعها:

ودع الصـــبر محـــب ودعـــك ذائـــع مـــن ســـره مـــا اســـتودعك
يقــرع الســن علــى أن لــم يكــن زاد فــي تلــك الخطــى إذ شــيعك
يـــا أخـــا البـــدر ســـناء وســـنى رحـــم الله زمانـــاً أطلعـــك!
إن يطـــل بعـــدك ليلـــي فلكـــم بـــت أشـــكو قصـــر الليـــل معـــك

وقال أيضاً:

أمـــا رجـــا قلبـــي فأنـــت جميعـــه يـــا ليتنـــي أصـــبحت بعـــض رجـــاك
يـدنو بوصـلك حـين شـط مـزاره وهـــم أكـــاد بـــه أقبـــل فـــاك

نموذج من شعره

قال من رسالته الجدية:

يـــا مـــولاي وســـيدي الـــذي ودادي لـــه، واعتمـــادي عليـــه، واعتـــدادي بـــه، وامتـدادي منـه، ومـن أبقـاه الله مـا مضـلا حـد العـزم، واري زنـد الأمـل، ثابـت عهـد النعمـة سـلبتني أعـزك الله لبـاس نعمائـك، وعطلتنـي مـن حلـي إيناسـك، وأظمـأتني إلـى ورد إسـعافك، ونفضـت بـي كيـف حياطتـك، وغضضـت عنـي طـرف حمايتـك، بعـد أن نظـر الأعمـى إلـى تـأميلي لـك، وسـمع الأصـم ثنـائي عليـك، وأحـس الجمـاد باسـتحمادي لـك. فـلا غـر وقـد يغـص المـاء شـربه، ويقتـل الـدواء المستشـفى بـه،

ويؤتي الحذر من مأمنه، وتكون منية المتمني في أمنيته. والحين قد يسبق جهد الحريص:

كل المصائب قد تمر على الفتى فتهون غير شماتة الحساد

وإني لأنجلد، وأرى الشامتين أني لريب الدهر لا أتضعضع. فأقول: هل أنا لابد أدماها سوارها، وجبين عض به إكليله، ومشرفي ألصقه بالأرض صاقله، وسمهري عرضه على النار مثقفة، وعبد ذهب به سيده مذهب الذي يقول:

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس أحياناً على من يرحم

ومنها:... وأعود فأقول. ما هذا الذنب لم يسعه عفوك؟ والجهل الذي لم يأت من ورائه حلمك؛ والتطاول الذي لم يستغرقه تطولك، والتحامل الذي لم يف به احتمالك. ولا أخلو أن أكون بريئاً فأين العدل؟ أو مسيئاً فأين الفل؟.

إن لا يكن ذنب فعدلك واسع أو كان لي ذنب ففضلك أوسع

وكلها على هذا الأسلوب الرائق، والديباجة المشرقة والتضمين المحكم، والافتنان الرائع.

وقال في رسالته الهزلية:

أما بعد أيها المصاب بعقله، والمورط بجهله، البين سقطه، الفاحش غلطه، العاثر في ذيل اغتراره، الأعمى عن شمس نهاره، الساقط سقوط الذباب على الشراب، المتهافت تهافت الفراش على الشهاب، فإن العجب أكذب، ومعرفة المرء نفسه أصوب. وأنت راسلتني مستهدياً من صلتي ما صفرت منه أيدي أمثالك، متصدياً من خلتي لما قرعت دونه أنوف أشكالك، مرسلا خليلتك مرتاده، مستعملا عشيقتك قوادة، كاذبا نفسك أنك ستنزل عنها إلي، وتخاف بعدها علي:

ولست بأول ذي همة دعته لما ليس بالنائل

ومنها:

هجين القذال، أرعن السبال، طويل العنق والعلاوة، مفرط الحمق والغباوة. بغيض لهيئة، سخيف الذهاب والجيئة، ظاهر الوسواس، منتن

الأنفاس، كلامك نمنمة، وحديثك غمغمة، وبيانك فهفهة، وضحكك قهقهة، ومشيتك هرولة، وغناك مسألة، ودينك زندقة، وعلمك مخرقة.

مساوٍ لو قُسمنَ على الغواني لما أمهرن إلا بالطلاق

وكلها على هذا النحو من الإقذاع والفحش والتهكم.

ابن حمديس الصقلي

(477 - 527 هـ)

نشأته وحياته

ولد عبد الجبار بن حمديس بجزيرة صقلية وعرف في بيئته منذ حداثته بمعالجة القريض؛ ولكنه ظل مجهول الذكر في أسواق الأدب فلا يسير شعره ولا يعرف قدره. حتى استولى النّورمنْدِيون على وطنه وهو في ميعة الشباب، فرأى بعينه وسمع بأذنه كيف سام الغاصب قومه سوء العذاب، وكيف جر على بلده شر الخراب، فهاجر إلى أسبانيا عام 471، ونزل بإشبيلية يمتاح فضل المعتد ابن عباد، فحجبه مدة لا يلتفت إليه ولا يعبأ به، حتى قال ابن حمديس: " قنطت لخيبتي مع فرط تعبي، وهممت بالنكوص على عقبي. فإني لكذلك ليلة من الليالي في منزلي إذ بغلام معه شمعة ومركب، فقال لي. أجب السلطان! فركبت من فوري ودخلت عليه فأجلسني على مرتبة من فرو الفنك، وقال لي افتح الطاق التي تليك، ففتحتها وإذا بكور من الزجاج على بعد والنار تلوح من بابيه، وواقده يفتحهما تارة ويسدهما أخرى، ثم أدام أحدهما وفتح الآخر، فحين تأملتهما قال لي:

أجز: أنظرهما في الظلام قد نجما فقلت: كما رنا في الدجنة الأسد

فقال: يفتح عينيه ثم يطبقهما فقلت: فعل امرئ في جفونه رمد

فقال: فابتزه الدهر نور واحدة فقلت: وهل نجا من صروفه أحد؟

فاستحسن ذلك وأمر لي بجائزة سنية وألزمني خدمته.

وظل الشاعر يتقلب في نعم الملك حقبة من الدهر حتى أنزله ابن تاشفين عن دسته، ونفاه من ملكه، فتبعه ابن حمديس إلى منفاه فمات الملك بعد أربع سنين من نكبته، وأقام الشاعر في المهدية قاعدة أفريقية، ثم انتقل إلى ميورقة فتوفي بها معوَجَّ القناة مكفوف البصر.

أخلاقه

كان ابن حمديس صحيح العقيدة، وقور النفس، رقيق الشعور، قوي الملاحظة ظاهر الجد، كثير الانقباض، شديد التشاؤم؛ ولكنه كان سمح الأخلاق، حلو المعاشرة، يحضر مجالس الطرب، ويخالط أصحاب اللهو، في عفة نفس وكرم خلق وسلامة عرض، ويبلغ من وصف ذلك مبلغ الإجادة والإبداع. وهو القائل:

أصف الراح ولا أشربها وهي بالشدو على الشرب تدور

كالذي يأمر بالكر ولا يصطلي نار الوغى حيث تفور

وهذه الصفات التي ذكرناها إما استنتجناها من شعره، ولا ندري أهي فيه من طبيعة ميلاده. أم هي أثر من آثار نكبته في بلاده.

شعره

شعره مرآة صافية تجلت فيها أخلاقه: فهو عفيف اللفظ، نبيل الفكرة، لا يسف إلى المجون، ولا يتورط في الغي. وقد دعاه ظلم الزمان ولؤم الإنسان وعلو السن إلى التبرم بالحياة، والشكوى من الناس، والثورة على النفس، وسلوك مذهب أبي العتاهية في الوعظ والتزهيد والتصوف بلغته الواضحة وأسلوبه المشرق. ثم تأتلق نفسه وينشرح صدره أحياناً فتتفتح مشاعره لجمال الطبيعة، ولذات الحياة، وعجائب الكون، فيصف النهر والزهر والصيد والخيل والليل وقصور الترف، ومجالس الطرب؛ يرسم كل أولئك بلفظ أنيق، وتصوير دقيق وعبارة بينة. ولعلك تلمس ذلك فيما نختاره لك من شعره، وكله مجموع مطبوع في بالرم سنة 1873 وفي رومية سنة 1897 م.

نموذج من شعره

قال في وصف نهر:

ومطرد الأجزاء يصقل متنه صباً أعلنت للعين ما في ضميره

جريح بأطراف الحصا كلما جرى عليها شكا أوجاعه بجزيره

وقال يصف بركة في قصر ابتناه المنصور ابن أعلى الناس ببجاية، عليها أشجار من الذهب والفضة وأسود من المرمر، والماء يخرج من أطراف تلك وأفواه هذه:

وضراغم سكنت عرين رأسه ... تركت خرير الماء فيه زئيراً
فكأنما غشي النضال جسومها ... وأذاب في أفواهها الباورا
أسد كأن سكونها متحرك ... في النفس لو وجدت هناك مثيراً
وتذكرت فتكاتها فكأنما ... أقعت على أدبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها ... ناراً وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول ... ذابت بلا نار فعدن غديراً
وكأنما نسج النسيم لمائه ... درعاً فقدر سردها تقديراً
وبديعه الثمرات تعبر نحوها ... عيناي بحر عجائب مسحوراً
شجرية ذهبية نزعت إلى ... سحر يؤثر في النهي تأثيراً
قد سرجت أغصانها فكأنما ... قبضت بهن من القضاء طيوراً
وكأنما تأبى لوقع طيرها ... أن تستقل بنهضها وتطيرا
من كل واقعة نرى منقارها ... ماء كسلسال اللجين نميرا
خرس تعد من الفصاح فإن شدت ... جعلت تغرد بالمياه صفيرا
وكأنما في كل غصن فضة ... لانت فأرسل خيطها مجروراً
وتريك في الصهريج موقع فطرها ... فوق الزبرجد لؤلؤا منثورا
ضحكت محاسنه إليك كأنما ... جعلت لها زهر النجوم ثغورا

وقال يبكي ذنوبه ويستغفر ربه:

يا ذنوبي ثقلت والله ظهري ... بان عذري فكيف يقبل عذري
كلما تبت ساعة عدت أخرى ... لضروب من سوء فعلي وهجري

ثقلت خطوتي وفودي تعرى غيهب الليل فيه عن نور فجري
دب موت السكون في حركاتي وخبا في رماده حر جمري
وأنا حيث سرت آكل رزقي غير أن الزمان يأكل عمري
كلما مر منه وقت بربح من حياتي وجدت في الربح خسري
يا رفيقاً بعبده ومحيطاً علمه باختلاف سري وجهري
مل بقلبي إلى صلاح فسادي منه واجبر برأفة منه كسري
وأجرني بما جناه لساني وتناجت به وساوس فكري

وقال من قصيدة يندب الزمن ويشكو الإخوان:

أتحسبني أنسى وما زلت ذاكرا خيانة دهري أو خيانة صاحبي؟
تغذى بأخلاقي صغيرا ولم تكن ضرائبه إلا خلاف ضرائبي
ويا رب نبت تعتريه مرارة وقد كان يسقى عذب ماء السحائب
علمت بتجريبي أموراً جهلتها وقد تجهل الأشياء قبل التجارب
ومن ظن أمواه الخضارم عذبة قصى بخلاف الظن عند المشارب
ركبت النوى في رحل كل بجيبه تواصل أسباني يقطع السباسب
ولما رأيت الناس يرهب شرهم تجنبتهم واخترت وحدة راهب

وقال في الغزل:

عذبت رقة قلبي ظلماً بقسوة قلبك
وسمت جسمي سقما وما شفيت بطبك
من لي بصبر جميل على رياضة صعبك؟
فيا تشوق بعدي! إلى تنسم قربك!
ووجنة غمستها في الورد صنعة ربك

لقـــد جنحـــت لســـلمي كمـــا جنحـــت لحربـــك
فبالـــــدلال الـــــذي زاد فـــي ملاحـــة عجبـــك
فكـــي مـــن الأســـر قلبـــاً عليـــه طـــابع حبـــك
ونعمينـــــي بعتبـــــي فقـــد شـــقيت بعتبـــك

ابن خفاجة الأندلسي

(450 - 533 هـ)

نشأته وحياته

أبو إسحاق إبراهيم ابن خفاجة الأندلسي ولد بمدينة شقر أو جزيرة شقر كما يسميها العرب. والظاهر من شعره أنه عاش معيشة الفنانين خليع العذار طليق الإسار فلم يسم إلى معالي الأمور، ولم يتول عملا من الأعمال العامة، ولم يتعرض لاستماحة ملوك الطوائف مع تهافتهم الشديد على أمثاله. وإنما أخلى ذرعه من مشاغل الحياة ووهب نفسه للجمال وفكره للخيال وحسه للذة، وكله للطبيعة. فهو يتنقل بين رباها وخمائلها، ويجول بين مروجها وجداولها، فيقف عند كل رائعة، ويصف كل واقعة، ثم يعود إلى كأس روية فيحتسيها، أو صورة فاتنة فيجتليها، أو ثمرة محرمة فيجتنيها. وتنفس به العمر على تلك الحال أتاه اليقين في مسقط رأسه سنة 533.

شعره

ابن خفاجة شاعر الطبيعة ومصورها. قد امتلأت نفسه وعينه من جمال الحياة وجمال الطبيعة، فراح يبرز هذا الجمال المعنوي في صور مختلفة من الجمال اللفظي؛ فانتقى الأساليب الصافية، والألوان الزاهية، ودبجها بزخرف البديع، ووشاها بكثير من المجاز والتشبيه، واستطاع بافتنانه أن يقيك الملل من كثرة تكراره، ووقوفه عند المناظر الحسية في استيحاء أشعاره. أما طلال الآراء النضيجة والمعاني العميقة، والأفكار الفلسفية، فما أظنهم يرجعون من قراءته بطائل: ولهذا الشاعر نثر [1] متكلف سخيف. يؤكد لك مرة أخرى أن إجادة الصناعتين قلما تتفق لأحد.

---

(1) قال من رسالة إلى بعض إخوانه يصل وده به وقلد قطعه، وهي غاية في التكلف والغثانة: أطال الله بقاء سيدي النبيهة أوصافه النزيهة عن الاستثناء، المرفوعة أمارته الكريمة بالإبداء؛ ما حذفت ياء يرمي للجزم، واعتلت ويغزو لموضع الصم. كتبت عن ود قديم هو الحال لم يلحقها أنقال، وعهد كريم هو الفعل لم يدخله اعتلال، والله يجعل هانيك من الأحوال الثابتة اللازمة. وصم هذا بعدا من

نموذج من شعره

قال يصف زهرة:

ومائسة تزهى وقد خلع الحيا ... عليها حلي حمراء وأردية خضرا

يذوب لها ريق الغمائم فضة ... ويجمد في أعطافها ذهباً نضرا

وقال يصف نهيراً ينساب في أحد المروج قد تعرج مجراه وتعددت مناظره:

لله نهر سال في بطحاء! ... أشهى ورواداً من لمى الحسناء

متعطف مثل السوار كأنه ... والزهر يكنفه، مجر سماء

قد رق حتى ظن قرصاً مفرغاً ... من فضة في بردة خضراء

وغدت تحف به الغصون كأنها ... هدب يحف بمقلة زرقاء

والماء أسرع جريه منحدراً ... متلوياً كالحية الرقطاء

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ... ذهب الأصيل على لجين الماء

وقال يصف بلاد الأندلس:

يا أهل أندلس لله دركم ... ماء وظل وأنهار وأشجار!

ما جنة الخلد إلا في دياركم ... ولو تخيرت هذى كنت أختار

وقال أيضاً:

إن للجنة بالأندلس ... مجتلى عين وريا نفس

فسنا صبحتها من شنب ... ودجا ليلتها من لعس

فإذا ما هبت الريح صبا ... صحتُ: وا شوقي إلى الأندلس!

=

الحروف الجازمة، وأنا أستنهض طاولك إلى تجديد عهدك بمطالعه ألف الوصل، وتعديه فعل التسل... إلى آخر هذا الهراء.

وقال يصف طيفاً ألم به في ليلة طويلة:

ورداء ليل بات فيه معانقي طيف ألم لظبية الوعساء
فجمعت بين رُضابه وشرابه وشربت من ريق ومن صهباء
ولثمت في ظلماء ليلة وفرة شفقاً هناك لوجنة حمراء
والليل مشمط الذوائب كبرة خرف يدب على عصا الجوزاء
ثم انثنى والسكر يسحب فرعه ويجر من طرب فضول رداء
تندى بفيه أقحوانة أجرع قد غازلتها الشمس غب سماء
وتميس في أثوابه ريحانة كرعت على ظمأ بجدول ماء
نَفّاحة الأنفاس إلا أنها حذر النوى خفاقة الأفياء
فلويت معطفها اعتناقاً، حسبها فيه بقطر الدمع من أنواء
والفجر ينظر من وراء عمامة عن مقلة كحلت بها زرقاء
فرغبت عن نور الصباح لنوره أغرى بها بينفسج الظلماء

وقال يصف موقداً هبت عليه ريح فألهبته:

لاعب تلك الريح ذاك اللهب فعاد عين الجد ذاك اللعب
وبات في مسرى الصبا يتبعه فهو لما مضطرم مضطرب
ساهرته أحسبه منتشياً يهز عطفيه هناك الطرب
لو جاءه منتقد لما درى ألهب متقد أم ذهب
تلثم منه الريح خداً خجلاً حيث الشرار أعين ترتقب
في موقد قد رقرق الصبح به ماء عليه من نجوم حبب
منقسم بين رماد أزرق وبين جمر خلفه ملتهب
كأنما خرت سماء فوقه وانكدرت ليلا عليه شهب

وقال يصف شاباً جميلاً يسبح:

وصقيل إفْرِنْد الشباب، بطرفه سقم، وللعضب الحسام ذباب
يمشي الهوينى نخوة ولربما أطرته طوراً نشوة وشباب
شتى المحاسن، للوضاءة ريطة أبداً عليه، وللحياء نقاب
وبمعطفيه للشبية منهل قد شف عنه من القميص سراب
عبر الخليج سباحة فكأنما أهوى فشق به السماء شهاب
تطفو لغوته هناك حبابة ويموج من ردف ألف عباب

لسان الدين ابن الخطيب

(713 – 776 هـ)

نشأته وحياته

هو ذو الوزارتين أبو عبد الله لسان الدين المعروف بابن الخطيب: ولد بغرناطة سنة 713 في مهد السؤدد والعلم والرياسة، وتخرج على علماءها في علوم اللسان والشريعة والفلسفة والطب والرياضة والتاريخ، وبذ في كل ذلك معاصريه ومناظريه من أدباء الأندلس. ثم وصلته ماتة الشعر والأدب بأبي الحجاج يوسف سلطان غرناطة (733 – 755) فاستكتبه، ثم استوزره وأطلق يده في شئون ملكه فاتسع نفوذه وضخم أمره. وما زال في هذا المنصب وتلك الحظوة حتى توفي أبو الحجاج وخلفه ابنه محمد الهامس فأقر لسان الدين في الوزارة. ولكن عقارب الوشاية دبت بين الرجلين فتنكر له السلطان، ففر منه إلى إفريقية فأكرمه ملوكها. ثم توالت عليه مكاره وخطوب انتهت بتسليمه إلى أعدائه، فاعتقلوه بفاس وأغروا جماعة من الفقهاء فأفتوا بإلحاده لاشتغاله بالفلسفة. فتسور عليه السجن بعض الأوشاب فقتلوه خنقاً.

منزلته في الكتابة

لسان الدين كاتب مطبوع على السجع، سائر في صناعته مع الطبع، يذهب إلى الإطناب في رسائله شأن كتاب الأندلس. وربما ساق الرسالة الضافية كلها على روى واحد. والنثر في الأندلس مبني على الخيال والصناعة لغلبة الشعر على أهله. وقل أن تجد فيه السائغ المقبول لتكلفهم السجع، وتعمهلم التنميق، وتوخيهم الإطالة. فهم شعراء بالطبع، وكتاب بالصنعة، على غير ما نرى في أهل الشرق.

وله شعر رقيق اللفظ رائق المعنى مقبول الصنعة. وقد انتهت إليه زعامة العلم والأدب في الأندلس، كلما انتهت إلى ابن خلدون معاصره في إفريقية. ولابن الخطيب القدم الراسخة في التاريخ، ومؤلفاته فيه تبلغ ستين كتاباً،

أشهرها كتاب الإحاطة في تاريخ غرناطة، وهو معجم تاريخي لرجلات غرناطة في ثلاثة مجلدات.

نموذج من كلامه

قال في موشحه المشهور الذي عارض به موشح ابن سهل:

جادك الغيث إذا الغيث همي يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما في الكرى أو خلسة المختلس

* * * * *

إذ يقود الدهر أشتات المنى تنقل الخطو على ما نرسم
زمراً بين فرادى وثنى مثلما يدعو الوفود الموسم
والحيا قد جلل الروض سنا فثغور الزهر منه تبسم
وروى النعمان عن ماء السما كيف يروي مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوباً معلماً يزدهي منه بأبهى ملبس

* * * * *

في ليال كتمت سر الهوى بالدجى لولا شموس القدر
مال نجم الكأس فيها وهوى مستقيم السير سعد الأثر
وطر ما فيه من عيب سوى أنه مر كلمح البصر
حين لذ النوم منا، أو كما هاجم الصبح نجوم الحرس
غارت الشهب بنا، أو ربما أثرت فينا عيون النرجس

* * * * *

أي شيء لامرئ قد خلصا فيكون الروض قد كنن فيه
تنهب الأزهار فيه الفرصا أمنت من مكره ما تتقيه
فإذا الماء تناجي والحصا وخلا كل خليل بأخيه

تبصر الورد غيوراً برما يكتسي من غيظه ما يكتسي
وترى الآس لبيباً فهما يسرق السمع بأذني فرس

* * * * *

يا أهيل الحي من وادي الغضا وبقلبي سكن أنتم به
ضاق من وجدي بكم رحب الفضا لا أبالي شرقه من غربه
فأعيدوا عهد أنس قد مضى تعنقوا عانيكم من كربه
واتقوا الله وأحيوا مغرما يتلاشى نفساً في نفس
حبس القلب عليكم كرماً أفترضون عفاء الحبس؟

* * * * *

وبقلبي منكم مقترب بأحاديث المنى، وهو بعيد
قمر أطلع منه المغرب شقوة المغرى به وهو سعيد
قد تساوى محسن أو مذنب في هواه بين وعد ووعيد
ساحر المقلة معسول اللمى جال في النفس مجال النفي
سدد السهم وسمى ورمى ففؤادي نهبة المفترس

* * * * *

إن يكن جار وخاب الأمل وفؤاد الصب بالشوق يذوب
فهو للنفس حبيب أول ليس في الحب لمحبوب ذنوب
حكم اللفظ نهاً فاحتكما لم يراقب في ضعاف الأنفس
منصف المظلوم ممن ظلما ومجازي البر منها والمسي

* * * * *

ما لقلبي كلما هبت صبا عاده عيد من الشوق جديد
كان في اللوح له مكتتبا قوله: إن عذابي لشديد

جلـــب الهـــم لـــه والوصـــبا فهـو للأشـجان فـي جهـد جهيـد
لا عـج فـي أضـلعي قـد أضـرما فهـــي نـــار فـــي هشـــيم اليـــبس
لـــم يـــدع فـــي مهجتـــي إلا ذمـــا كبقـــاء الصـــبح بعـــد النـــاس

ومـن قصـار رسـائله فـي الشـوق إلـى ابـن خلـدون وهـي تمثـل طريقتـه فـي الكتابة:

أمـا الشـوق فحـدث عـن البحـر ولا حـرج. وأمـا الصـبر قـل بـه أيـة درج، بعـد أن تجـاوز اللـوى والمنعـرج، لكـن الشـدة تعشـق الفـرج، والمـؤمن ينشـق مـن روح الله الأرج. وأنـي بالصـبر، علـى إبـر الـدبر، بـل الضـرب الهبـر، ومطاولـة اليـوم الشـهر، حتـى حكـم القهـر. وهـل للعـين أن تسـلو سـلو المقصـر، عـن إنسـانها المبصـر، أو تـذهل ذهـول الزاهـد، عـن سـرها الرائـي والمشـاهد، وفـي الجسـد مضـغة يصـلح إذا صـاحت، فكيـف حالـه إن رحلـت عنـه ونزحـت؟ وإذا كـان الفـراق هـو الحمـام الأول، فعـلام المعـول؟ أعيـت مراوضـة الفـراق علـى الـراق، وكـادت لوعـة الاشتياق، أن تفضي إلى السياق.

تركتمـــوني بعـــد تشـــييعكم أوســـع أمـــر الصـــبر عصـــيانا
أقـــرع ســـني نـــدماً تـــارة وأســـتميح الـــدمع أحيانـــاً

الشعر والكتابة والعلوم والفنون في مصر على عهد الفاطميين

ذهبت ريح العباسيين بعد المتوكل على الله لفساد الحكم وسوء النظام واستبداد الوزراء وتنافس الزعماء؛ وانتقص الولاة دولتهم من أطرافها، وغلب الثوار على كثير من أملاكها. وكان العلويين الفاطميون ممن شارك في هذا النهب المقسم، فاقتطعوا منها شمالي إفريقية ثم مصر والشام والحجاز.

قام خليفتهم الأول عبيد الله ابن محمد بالقيروان سنة 246هـ ثم أرسل خليفتهم الرابع المعز لدين الله قائده وكاتبه جوهر الصقلي إلى مصر في جيش عرمرم ففتحها بالسيف وملكها بالذهب، وحفر حيث نزل سنة 357 أساس القصر الكبير لمولاه، وأساس الجامع الأزهر لله. وأنزل طوائف الجيش حولهما في نحو العشرين خطة ضرب عليها سوراً من اللبن فكان من ذلك مدينة القاهرة التي اتخذها الفواطم منذ يومئذ قاعدة لخلافتهم تعاقب على عرشها منهم أربعة عشر خليفة من سنة 357 إلى 467 هـ حتى غليهم عليه صلاح الدين.

ظفرت مصر يوم دخول المعز بالاستقلال والخلافة والأزهر، وخفق العلم الأبيض على القاهرة منافساً للعلم ألسود في بغداد، وللعلم الأخضر في قرطبة؛ ووجدت الآداب العربية والحضارة الإسلامية في ظلال هذه الأعلام الثلاثة سبيلا إلى الانتشار، ومساعداً على الازدهار، وميعناً على النمو. وكان الفاطميون في مصر والأمويون في الأندلس إنما يتشبهون بالعباسيين في العراق، يأتمون بهديهم، ويسترشدون بوحيهم، في السياسة والحضارة والأدب والعلم والفن، فلم يحدثوا في شيء من ذلك حدثاً يصح أن ينسب إليهم أو يعتمد فيهم عليهم، إلا ما اقتضته طبيعة الإقليم وسياسة التعليم ونظام الاجتماع. ولكن المطاولة بين هذه الخلافات الثلاث كانت تستلزم المنافسة في تقريب الشعراء، وتعضيد العلماء، وتشييد المدارس، وإنشاء المكاتب. فكما اشتهر الرشيد وابنه المأمون في آسيا، اشتهر الناصر وابنه الحكم في أوربا،

والعزيز بالله وابنه الحاكم في إفريقيا. فقد شغف العزيز بجمع الكتب واقتنائها وإقرائها حتى بلغ ما في " خزانة الكتب " التي ابتناها في قصره زهاء ألف ألف مجلد في الفقه والنحو والحديث والتاريخ والعلوم. وكان لوزيره يعقوب ابن كلس اليد البيضاء والقدم السابقة في إنهاض الأدب والعلم في مصر، فد كان يندو في داره رجال الدب والشعر والفقه والصناعة، فيرفدهم ويرشدهم. وكان يجلس للناس في كل جمعة فيدرسهم ويقبسهم ما يؤلف في القراءات والفقه. وأنشأ الحاكم بأمر الله مكتبة على نسق بيت الحكمة الذي أنشأه المأمون في بغداد سماها " دار الحكمة "، واستقدم إليها الأدباء والعلماء والفقهاء والأطباء، وأجرى عليهم الأرزاق، وباج دخولها الناس، فكثرت فيها المناظرات وألقيت بها المحاضرات، والحاكم نفسه يحضرها وينصرها، ويعني بها كما كان يصنع المأمون. وقد بلغ من عناية الفاطميين باللغة العربية وأدبها راقبوها في الدواوين وجعلوا لها في ديوان الإنشاء أستاذاً يصحح أخطاء الكاتبين بها، ويرشد العاجزين إلى طريق أدبها. كابن بابشاذ المتوفى سنة 466 هـ وابن يرى المتوفى سنة 582 هـ. وأخذ الأزهر يشع نوره في خلافة العزيز بالله، إذ أمر وزيره يعقوب أن يستقدم إليه ما استطاع من فقهاء العالم الإسلامي لينصروا مذهب الشيعة، ويؤيدوا دعوى الخلافة؛ وأن يجري عليهم الوظائف ويشيد لهم المساكن، فانتقل هؤلاء الفقهاء من القراءة إلى الإقراء، ومن المدارسة إلى الجدل والمراء، حتى انتهى الأمر بالأزهر إلى أن صار المدرسة الإسلامية الكبرى.

وبلغت القاهرة المعزية في أواسط القرن الخامس أوج حضارتها، وغاية عمارتها، فغضت برجال الأدب والفنون، وزخرت بمخلفات الأمم والقرون. وزهت بما افتن فيه الخلفاء والأمراء والوزراء من تشييد المناظر، وإقامة الدور، وتفخيم القصور، وعقد القباب العجيبة، وصنع المقرنصات البديعة، وتزيين ذلك كله بما عرف عن اليد المصرية الصناع من روائع النقش وبدائع الزخرف وجمال الألوان، وتوشيته بالزجاج الملون، وتبليطه بالرخام المصقول والكاشاني الجميل، ورصفه بالفسيفساء المفوفة " مما طاولت به القاهرة بغداد وقرطبة، وكان نموذجا صادقا لارتقاء فن العمارة والزخرفة أواخر القرن السابع

وأوائل القرن الثامن. وقلما سمع في تاريخ دولة إسلامية ما سمع عن الخلفاء الفاطميين في سرفهم وامتلاء خزائنهم بالذخائر والجواهر والأعلاق والأسلحة والكتب. ولم يقم في مملكة من الاحتفال ما كان يقوم به خلفاء القاهرة في المواسم والأعياد ". وكان للشعر في تلك الحفلات رواج ونفاق، وللشعراء في ميدانه استنان واستباق، فنبع في آخر هذه الدولة طائفة من الشعراء المصريين جروا على أساليب البغداديين في عصورهم الأخيرة من الميل إلى الصناعة البديعية والحلية اللفظية. وكذلك من نبغ فيها من الكتاب نهجوا هذه السبيل في شيء من التوفيق والإجادة. وحسبك أن تعلم أن القاضي الفاضل إمام الطريقة الرابعة ف الأدب العربي إنما تعلم الكتابة في ديوان القاضي ابن حديد في الإسكندرية، وكتب في ديوان الظافر بالقاهرة. ووزر لصلاح الدين ابن أيوب بعد ذلك. فطريقته من غير شك كانت هي الطريقة الفاشية في مصر على عهده. وقد فصلنا القول فيها أثناء كلامنا عن الكتابة وعن هذا الكاتب ص 238 ص 318 فارجع غليه.

الشعراء في مصر

نبغ من الشعراء في ربوع النيل أبو علي تميم ابن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي المتوفى سنة 375، وقد اشتهر بشعره الغزلي، وحواره العمري، وأسلوبه القوي، ونسجه الدقيق. روى منه صاحب اليتيمة نخبة صالحة في الجزء الأول ص 347 وله ديوان مطبوع.

وابن وكيع الملقب بالعاطس، ولد في قرية قريبة من دمياط وتوفي بها سنة 294 هـ وقد عرف بابتكار معانيه وحسن تصرفه.

وأبو الفتح نصر الله بن قلاقس الإسكندري الملقب بالقاضي الأعز، حل في أعقاب عمره إلى اليمن ومدح بعض حكامها فأغنوه، ولكن السفينة التي كانت تحمله وهو عائد إلى مصر غرقت على مقربة من دهلك فعاد إلى اليمن صفر اليدين، ثم سافر إلى صقلية ورجع منها فمات في عيذاب سنة 567.

وهبة الله ابن سناء الملك الملقب بالقاضي السعيد، كان من الشعراء المجدودين والرؤساء المعدودين. اتصلت أسبابه بالقاضي الفاضل والعماد الكاتب، وسمت به كفايته إلى مكان رفيع من الخطوة والثروة. وكان في مصر على عهده جماعة من الشعراء الذين ألف بينهم الأدب فكانوا يجتمعون ويتناشدون ويتسامرون، وكان هو واسطة قلادتهم ومحل رياستهم. وهو أول من سبق إلى الموشحات وأجادها من شعراء الشرق. وله الموشحة المشهورة التي مطلعها:

كللي يا سحب تيجان الربى بالحلى واجعلي سوارك منعطف الجدول

ثم جمال الدين ابن مطروح ولد بأسيوط ونشأ في قوص واتصل بخدمة الملك الصالح الأيوبي حتى جعله ناظراً على الخزانة ثم وزيراً لنائب دمشق، ثم تقلبت به الحال من سفر وحضر ورصاً وسخط حتى توفي بالقاهرة سنة 649 هـ.

ثم الشاعر الغزلي الرقيق كمال الدين ابن النبيه، وإليك ترجمته.

كمال الدين ابن النبيه

(المتوفى سنة 619 هـ)

نشأته وحياته

نشأة هذا الشاعر القدير مجهولة، وحياته مرت عادية هادئة، كالجدول السلسال في الروض الأفيح، لا تسمع غير أنغامه وخريره. فلم يلق بنفسه في غمار السياسة وهو يعج بين يديه ومن خلفه، واكتفى بمدح بني أيوب في مصر حتى اتصل بالملك الأشرف موسى صاحب الجزيرة وخلاط، فكتب له في ديوان الإنشاء وأقام بنصيبين في خدمته حتى توفى بها سنة 619 هـ.

شعره

ابن النبيه شاعر غمرُ البديهة مليح النادرة، منسجم الأسلوب، حسن الوشى مطبوع على البديع؛ فهو يتوخى الحلية اللفظية ويشتد في طلبها، ولكن يخيل إليك أنه لا يتلقفها ولا يتكلفها لجمال صياغته وقوة صناعته. وما رأيت شاعراً قبل هذا الشاعر يتكلف بالبديع هذا الكلف، ويسرف فيه هذا السرف، ثم يضطرك وأنت تقرأه إلى الرضا عنه والإعجاب به. ذلك لأن أسلوبه قوي الحياة، شديد الحركة، كثير التنوع، مزدهر الألوان، يستر بقوة طبعه ما يبدو من ضعف صنعته، كقوله في المدح مثلاً:

فحريق حمرة سيفه المعتدى ورحيق خمرة سيبه للمعتفى

يا بدر! تزعم أن تقاس بوجهه وعلى جبينك كلفة المتكلف؟

يا غيم! تطمع أن تكون ككفه كلا وأنت من الجهام المخلف

ولم يكد شعره يخرج عن أغراض ثلاثة أجادها كلها إجادة قل أن تظفر بمثلها في عصره. وهي المدح، وكله في بني أيوب إلا قصيدة أو قصيدتين مدح بهما الخليفة الناصر العباسي؛ والغزل والوصف، ولا يجئ بهما مستقلين، وإنما يسوقهما مقدمة لمدحه. فأما مدحه فقد سلك فيه الطريقة المألوفة من ذكر الفتح ولنصر والبأس والجود. وأما غر له فمن النوع الحسى الشهواني

الـذي لا يتعـدى مـال الشـكل، مـن ليـل الشـعر، وصـبح الوجـه، وسـحر الجفـون، وسـهام العيـون، ولؤلـؤ الثغـر، ويـاقوت الشـفة الـخ. أمـا الإحسـاس القلبـي بالحـب والإدراك النفسـي للجمـال فشـيء لا تظفـر بـه فيـه. والـراجح فـي الظـن أنـه كـان يقولـه علـى أنـه بـاب مـن أبـواب الشـعر، لا علـى أنـه فـيض مـن الشـعور، ونـور مـن الإلهام. أما وصفه فأكثره في الخمر ومجالسها، وأقله في الطبيعة ومناظرها.

وعلـى الجملـة فـابن النبيـه شـاعر عـذب الـروح، كثيـر الافتتـان؛ مغـرق فـي المجـاز ولتشـبيه والبـديع. مجيـد للمطـالع، محسـن للـتخلص. ولـه ديـوان طبـع فـي بيروت وفي مصر.

نموذج من شعره

قال في أول قصيدة يمدح بها الملك الناصر لدين الله العباسي:

باكر صبوحك، أهني العيش باكره ... فقـد تـرنم فـوق الأبـك طـائرة

والليل تجري الدَّرارى في مجرنه ... كـالروض تطفـو علـى نهـر أزاهـره

وكوكب الصبح نجاب، على يده ... مخلـق تمـلأ الـدنيا بشـائره

فانهض إلى ذوب ياقوت لها حبب ... فهـل جناهـا مـع العنقـود عاصـره

ساق تكـون مـن صبح ومـن غسق ... فـابيض حـذاءه واسـودت غـدائره

مهفهـف القـد ينـدى جسـمه ترفـاً ... مخصـر الخصـر عبـل الـردف وافـره

سـود سـوالفه، لغـس مراشـفه، ... نعـس نـواظره، خـرس أسـاوره

تعلمـت بانـة الـوادي شـمائله ... وزوت سـحر عينيـه جـآذره

خـذ مـن زمانـك مـا أعطـاك مغتنمـا ... وأنـت نـاه لهـذا الـدهر آمـره

فـالعمر كالكـأس تسـتحلى أوائلـه ... لكنـه ربمـا مجـت أواخـره

وقال في مطلع قصيدة يمدح بها الملك الأشرف:

أفديـه إن حفـظ الهـوى أو ضـيعا ... ملـك الفـؤاد فمـا عسـى أن أصـنعا؟

مـن لـم يـذق ظلـم الحبيـب كظنـه ... حلـواً فقـد جهـل المحبـة وادعـى

يا أيها الوجه الجميل تدارك الصبر الجميل فقد عفى وتضعضعا
هل في فؤادك رحمة لمتيم ضمت جوانحه فؤاداً موجعاً

ومن غزله في بعض قصائده:

أجفانه شرك القلوب كأنما هاروت أودعها فنون فنونه
ياقوته متبسم عن لؤلؤ خجلت عقود الدر من مكنونه
ساق صحيفة خده ما سودت عبثاً بلام عذاره وبنونه
جمد الذي بيمينه في خده وحرى الذي في خده بيمينه
طاب الربيع كأنما عجن الصبا كافور مزنته بعنبر طيبه
وتفضضت أزهاره وتذهبت فكأنها طاووس في تلوينه

ومن غزله أيضاً:

أماناً أيها القمر المطل! فمن جفنيك أسياف تسل
يزيد جمال وجهك كل يوم ولى جسد يذوب ويضمحل
وما عرف السقام طريق جسمي ولكن دل من أهوى يدل
يميل بطرفه التركي عني صدقتم. إن ضيق العين بخل
إذا نشرت ذوائبه عليه ترى ماء يرف عليه ظل
أيا ملك القلوب فتكت فيها وفتكك في الرعية لا يحل
قليل الوصل ينفعه فإن لم يصبها وابل منه فطل
أدر كأس المدام على الندامى فمن خديك لي راح ونقل
بمنظرك البديع تدل تيهاً ولى ملك بدولته أدل

وله قصيدة الرثاء المشهور التي رثى بها ولد الناصر بالله ومطلعها:

الناس للموت كخيل الطراد فالسابق السابق منها الجواد

والله لا يـــــــدعو إلـــــــى داره إلا مــن استصــلح مــن ذي العبــاد

والمـــوت نقـــاد، علـــى كفـــه جـــواهر يختـــار منهـــا الجيـــاد

لا تصـــــــــــلح الأرواح إلا إذا سـرى إلـى الأجسـام هـذا الفسـاد

ابن الفارض

(576 – 632 هـ)

نشأته وحياته

هو أبو حفص عمر ابن على المعروف بابن الفارض. أصل آبائه من حماة وولد هو بالقاهرة سنة 576، وتفقه في الدين، وتوسع في اللغة والأدب، حتى أحرز منهما قسطا وافراً. ثم وقع في نفسه أن ينهج منهج الصوفية، فاقتفى آثارهم وعرف أسرارهم. وذهب إلى مكة فزار البقاع المقدسة ومكث بها زماناً ثم رجع إلى مصر فقضى بها بقية عمره بين الإعظام والإكرام حتى توفى بالقاهرة ودفن بسفح المقطم سنة 632 هـ.

صفاته

كان ابن الفارض على تقشفه وتصوفه جميل الهيئة، حسن البزة، ظريف المحضر، محمود العشيرة، وقوراً، كثير الورع، إذا مشى في المدينة ازدحم الناس عليه يلتمسون منه البركة والدعاء. إذا حضر مجلساً عقدت هيبته السنة أهله فلا يتكلمون. فإذا أراد النظم أخذته غيبوبة يطول أمدها أحياناً إلى عشرة أيام كما قيل، لا يأكل أثناءها ولا يشرب ولا يتحرك، فإذا أفاق أملى شعره!.

شعره

نشأ ابن الفارض في عصر الأيوبيين وهو عصر تنازع النفوس فيه عاملان مختلفات: عامل التصوف والتقوى، لدوام الحروب وتوالي المكروب من المجاعات والموتان؛ وعامل الفسوق والمجون، لانحلال الأخلاق وتحكم الشهوات، وانتشار المخدرات. واتجه الشعر في مصر وفي غير مصر إلى هاتين الوجهتين. فهو إما أن يراد به الله وإما أن يراد به الشيطان. وابن الفارض قد نشأ نشأة دينية، وربى تربية صوفية، فلم يكن له بد من سلوك طريقة القوم في شعره، ينظم إشاراتهم، ويصف مقاماتهم، ويكثر من نعت الخمر وذكر الغزل، مريداً

بذلك الذات الإلهية على اصطلاحهم. فكان بذلك موجد الطريقة [1] الرمزية في الشعر العربي (Sympolisme) وهو أكثر الشعراء تعملا للكلام وتكلفاً للبديع، وولوعاً بالجناس والطباق، وأسير معاصريه شعراً، لرقته واشتماله على ما يرضى المتصوف الزاهد، والعاشق الماجن: ذلك بباطنه وهذا بظاهره. فالمتصوفون ينشدونه في مجالس الذكر، والخلعاء يغنونه في مجالس الخمر. وقد شرح ديوانه جماعة من العلماء واختلفوا في أغراضه، فمنهم من شرحه على ظاهر اللفظ ولم يتأول شيئاً كالبوريني (1024) ومنهم من شرحه وأوله على طريقة الصوفية كالنابلسي (1143).

ومن أشهر شعره تائيتاه الكبرى والصغرى، تبلغ الأولى نحو 600 بيت والأخرى نحو 103 بيت. وقد استوعبتا أغراض الصوفيين وأسرارهم، ولا يقرأهما إلا من رزق الصبر والجلد على حل هذه الرموز، يقول في مطلع الكبرى:

نعم بالصبا قلبي صبا لأحبتي فيا حبذا ذاك الشذا حين هبت

تذكرني العهد القديم لأنها حديثة عهد من أهيل مودتي

أما سائر شعره فجلى واضح يغلب فيه الجنين إلى الحجاز وأهله، والإكثار من ذكر جباله وقراه.

نموذج من شعره

قال في الغزل:

لم اخل من حسد عليك فلا تضع سهري بتشييع لخيال المرجف

وأسأل نجوم الليل هل زار الكرى جفني؟ وكيف يزور من لم يعرف

وقال:

---

(1) ظهرت الطريقة الرمزية في فرنسا في منتصف القرن التاسع عشر نتيجة للطريقة البرناسية (Ecole Parnasienne) وقد بلغ أربابها بالكتابة والشعر حد التعمية والتعجيز. اقرأ ما كتب عنها في كتابنا " دفاع عن البلاغة ".

أعد ذكر من أهوى ولو بملام فإن أحاديث الحبيب مدامي
كأن عذولي بالوصال مبشري وإن كنت لم اطمع برد سلامي
طريح جوى صب جريح جوارح قتيل جفون بالدوام دوامي
صحيح عليل فاطلبوني من الضنى ففيها كما شاء النحول مقامي

وقال في الحمر وفيها كثير من رموز الصوفية:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها قبل أن يحلق الكرم
لها البدر كأس وهي شمي، يديرها علال، وكن يبدو إذا طلعت نجم
ولولا شذاها ما اهتديت لحانها ولولا سناها ما تصورها الوهم
يقولون لي: صفها فأنت بوصفها خبير، أجل عندي بأوصافها علم
صفاء ولا ماء، ولطف ولا هوا، ونور ولا نار، وروح ولا جسم
تقدم كل الكائنات حديثها قديماً ولا شكل هناك ولا رسم
وقالوا شربت الإثم، كلا وإنما شربت التي في تركها عندي الإثم
فلا عيش في الدنيا لمن عاش صاحياً ومن لم يمت سكراً بها فاته الحزم
على نفسه فليبك من شاع عمره وليس له فيها نصيب ولا سهم

بهاء الدين زهير

(581 - 656 هـ)

نشأته وحياته

أبو الفضل زهير بن محمد المهلبي ولد بوادي نخلة على مقربة من مكة ونقل على مصر فنشأ بها وتأدب فلما بلغ أشده واستوى في العلم والجسم، وبرع في النظم والنثر والخط، اتصل بالملك الصالح ابن الملك الكامل الأيوبي ورافقه إلى الشام والجزيرة. فلما غليه ابن عمه الملك الناصر صاحب الكرك واعتقله عل أثر موقعة بينما خذله فيها قواده، وتألبت عليه أجناده، وانضووا تحت لواء ابن عمه لم ينقض البهاء عهد ملكه، ودعاه الوفاء ألا يخدم غيره. فأقام بنابلس حتى عاد الماء إلى مجراه، ونهض الجد بمولاه، فاسترد الصالح ملك لديار المصرية فأعاد بهاء الدين إلى خدمته. وعرف له ولاءه ووفاءه، فاتخذه وزيره وموضع سره، يصدر عن رأيه ويمضي على مشورته. وقد نفع كثيراً من الناس بوساطته وشفاعته. وظل على تلك الحال حتى مات الملك الصالح فلزم داره إلى أن حدث بالقاهرة وباء فمات به سنة سقوط بغداد في أيدي التتار.

شعره

كان بهاء الدين دمث الأخلاق، رقيق الطباع، لين الجانب، حلو الكلام فأثرت تلك الصفات في شعره، فجاء عذباً رقيقاً يطمع السامع أن يأتي بمثله لسهولته ورقته، فإذا حاول عجز. فشعره فيض قريحته، ووحي طبيعته، وصورة بيئته لم يقلد فيه أحداً، ولم يطلب من غير شعوره مدداً، ولم يعبر عنه إلا بلغة المصريين وأساليبهم. فلا تجد كلمة غريبة، ولا جملة معقدة، وإنما تدرك فيه عذوبة النيل وتدفقه، وتلمح عليه جمال جوه وتألقه وقد أحسن وأجاد في الغزل والعتاب، وقصر فيما عداهما. وليس في معاني البهاء ابتداع ولا تخيل؛ وإنما هي معان عادية كساها ألفاظها سهلة، وبث فيها من روحه الفياض قوة التأثير فسمت إلى أحرار المعاني. وشعره مجموع مطبوع متداول. وقد ترجمه

المستشرق الإنجليزي بلمر إلى الإنجليزية نظماً وطبعه في كمبردج سنة 1876 في مجلدين وعلق عليه.

نموذج من شعره

قال يخاطب المتزمت من صروف الدهر:

لا تعتب الدهر في خطب رماك به ... إن استرد ففدماً طالما وهبا
حاسب زمانك في حالي تصرفه ... تجده أعطاك أضعاف الذي سلبا
والله قد جعل الأيام دائرة ... فلا ترى راحة تبقى ولا تبعا
ورأس مالك وهي الروح قد سلمت ... لا تأسفن لشيء بعدها ذهبا
ما كنت أول مفدوح بحادثة ... كذا مضى الدهر لا بدعاً ولا عجبا!
فرب مال نما من بعد مرزأة ... أما ترى الشمع بعد القطف ملتهبا؟

وله في الغزل:

خليلي أما هذه فديارهم ... وأما غرامي فهو ما تريان
خليلي هذا موقف يبعث البكا ... فماذا الذي بالدمع تنتظران؟
فإن كنتما لا تسعداني على الأسى ... قفا ودعاني ساعة ودعاتي
فيا ويح قلبي بالغرام أطعنه! ... فما لي أراه في السلو عصاني؟
وإني وإياه كما قال قائل: ... رفيقك قيسي وأنت يماني!

ومن قوله في الغزل أيضاً:

إن شكا القلب هجركم ... مهد الحب عذركم
لو رأيتم محلكم ... من فؤادي لسركم
قصِّروا حدة الجفا ... طول الله عمركم

ومن قوله في المزاح:

لك يا صديقي بغلة ... ليست تساوي خردله

تمشـــي فتحســـبها العيـــون على الطريـــق مشـــكله
وتخـــــال مـــــدبرة إذا مـــا أقبلـــت مســـتعجله
مقـــدار خطوتهـــا الطويلـــة حـــين تســـرع أنملـــه
تهتـــز وهـــي مكانهـــا فكأنمـــا هـــي زلزلـــة
أشـــبهتها بـــل أشـــبهتك كـــأن بينكمـــا صـــله
تحكـــي صـــفاتك فـــي الثقالـــة والمهانـــة والبلـــه